مذكرات صِبـــا

اسم الكتاب: مذكرات صبا
اسم الكاتبة: أميرة عـــلام
مراجعة لغوية: مهـا سيــد
تصميم الغلاف: أمنية محمـد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 -

01014977934 - 01030365801
Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

مذكرات صِبا

رواية

أميـــرة عـــلام

للنشر والتوزيع
Arabic Library

الإهـــداء

إلى أبي الغائب الحاضر ..وإلى أمي دام حضورها

ستظلان القنديل المتوهج الذي ينير طريقي المظلمة.

شكر خاص

لآية رضا إحدى الناجيات من عبارة السلام التي قصت لي أهوال هذا اليوم كما عاشته لأكتب عنه بشكلٍ دقيق .

وسارة محمد علي التي أمدتني ببعض المعلومات عن تلك العبارة.

يقول الراوي

صيف عام 1990

كان عبد العزيز جالسًا على أحد الأحجار في غيطه، يشذب عصا لحماره عندما أتاه أحد الصبية، يخبره أن أم حسين تريده.

ترك عبد العزيز ما في يده واتجه إلى "الطرومبة"، أخذ منها ماءً ليمسح بقعةً خضراء من زرع البرسيم، كانت ملطخة جلبابه وهندم شعره الناعم، وساوى حاجبيه الكثيفين في عجالة وذهب إلى بيت "أم حسين".

طرق الباب الخشبي العملاق الموارب كعادة البيوت في الأرياف، ووقف متوترًا،

فتحت له آمال وكانت مبتسمة كعادتها حين تراه، فقالت أم حسين:

- ادخل يا عبد العزيز.

دخل فأعطته قلمًا ودفترًا، وقالت:

- اجلس.

تربع على الحصيرة مقابلًا لها، فقالت موجهةً حديثها لآمال:

- أعدي كوبًا من الشاي لعبد العزيز.

دخلت آمال المطبخ وهي تسترق السمع، وأكملت أم حسين حديثها بحزن:

- كبرت آمال يا عبد العزيز، صار يطلبها العرسان، وحسين وإبراهيم في الغربة.

غصّ عبد العزيز عند تلك الجملة، وأشفق عليها قبل أن تكمل:

- كلما تقدم أحدهم أتحجج بحجج فارغة، لا أريد أن أزوجها دون وجود أحد أخويها على الأقل؛ حتى لا يظنها أحدهم مطية لا سند لها ويكسرها.

- لا عاش من يكسرها يا خالة.

تجاهلت ما قال، وأكملت:

- حسين وإبراهيم، كأن الغربة أعجبتهما ولم يراعيا وحدتنا بعد وفاة أبوهما، أمس طلبها سيد الجندي، رجل ميسور الحال وهذه فرصة فأعطيته موافقة أولية.

عقد عبد العزيز حاجبيه، وقاطعها قائلًا باستنكارٍ:

- ولكنه متزوج، ويكبرها كثيرًا في العمر!

- خلفته من زوجته الأولى بنات كما تعلم، وهو يريد ولدًا.

- وما شأن آمال بذلك؟! إنها ما زالت صغيرة، لا تتعجلي ستأتيها فرص كثيرة.

- خمسة عشر سنة ليست صغيرة، مثلها يفتحون بيوت.

أرادت أم حسين أن تنهي الجدال، فأكملت:

- أنا لا آخذ رأيك يا عبد العزيز، أنا فقط أخبرك لنهيء خطابًا لأخويها بهذا الكلام، وتخطه بيدك.

أفلت عبد العزيز القلم والدفتر من يده، ونهض من جلسته وهو يقول:

- آسف يا خالة، لن أكتب شيئًا من هذا.

في تلك اللحظة، خرجت آمال تحمل كوب الشاي، فنظر لها وللكوب وغادر، تفاجأت آمال مثله وكانت صغيرة ولا تعلم ماذا تفعل حيال ذلك، فكانت هيئة سيد الجندي في مُخيلتها التي كانت تراه بها في محل عمله دائمًا، فقد كان لحام، له عينان ناعستان، وشارب غليظ يُغطي شفته العليا، وأنف طويل معقوف، يرتدي طاقية صوفية، وجلبابه دائمًا ملطخًا بالدماء، ورائحة أحشاء الحيوانات تفوح منه، ولكنه كان يعاملها معاملة خاصة، عندما تبتاع منه شيئًا كدأب الحسناوات في أي مكان، دائمًا يعاملن بحفاوة، ولكن ذلك لم يشفع له، ولم يلطّف هيئته الفظة بالنسبة لها، فقالت لأمها برجاء:

- معه حق يا أمي، إنه رجل يكبرني في العمر ومتزوج، أنا أناديه بعم سيد، لا أريده.

- وأنا لا أريد إلا مصلحتك.

- ولكني أريد أن أتزوج من مثل عبد العزيز.

فطنت أم حسين أنه يحب ابنتها، ويبدو جليًا أن ابنتها أيضًا تحبه، كان هذا لن يثير غضبها ويجعلها تحسم قرارها في زواج ابنتها لسيد الجندي، لو كان عبد العزيز جاهزًا للزواج، ولكنه كان أصغر إخوته الخمسة، وثلاثة منهم لم يكونوا متزوجين لضيق الحال؛ فهذا يعني أنها ستكون علاقة مرهقة، طويلة الأمد بلا معالم واضحة وبلا أساس.

(عبد العزيز، كان فتى صالحًا، وسيمًا عنده قدر لا بأس به من الأخلاق والعلم، في التاسعة عشر من عمره، ويساعد آمال وأمها نظرًا لأنهما وحيدتان بلا رجل؛ فقد سافر أخواها حسين وإبراهيم للسعودية،

وتوفيا هناك إثر حريقٍ التهم المنزل بمن فيه من عمال مصريين، عندما جاء الخبر لأم حسين لم تصدق، كذّبت من بلغها ولما أصّر ضربته، ولم تأخذ عزاء وكل من كان يحاول أن يقنعها كان يلاقي مصير من بلغها، ظلت تبعث لهما بالخطابات التي لم تصل ولم يرد عليها، ربما لو رأت جثمانهما لصدقت.

بعدها بسبعة شهور مات زوجها فجأة إثر أزمة قلبية، وترك لها أرضًا صغيرة يقتاتون منها، أصابها خوف مبالغ فيه من فراق الأحبة، كانت آمال في العاشرة من عمرها؛ فحرمتها من الدراسة لتظل جوارها.

كان الحب بنظر أم حسين لم يكن كافيًا لأن يفتح بيتًا، كانت تراه شيئًا ثانويًا، لا وجود له على أرض الواقع، تجربتها علمتها أن أهم شيء يفتح البيت هو المال، كانت تظن أنها لو كانت تملك المال لن يضطر ولداها أحب من في الدنيا إليها أن يتركاها ويذهبا للغربة، وتفقد هي لذة العيش وبهجته،

فكانت لا تريد لآمال أن تكرر هذه المأساة، بل أرادت لها السعادة، فحرمتها إياها من حيث أرادت أن تكسبها لها.

فقالت:

– اسمعي يا آمال، عبد العزيز فقير لن يستطيع أن يتزوجك، ما زال يدرس ويأخذ مصروفًا من أبيه، حين يستطيع ستكونين جدبتِ ولم يكن لك بنت ولا ولد.

أذعنت آمال لرأي أمها؛ فقد كانت فتاة ريفية معرفتها عن الحياة محدودة، محدودة جدًا وكانت أمها هي بوصلتها الوحيدة، وعبد العزيز كان حُلمًا جميلًا استيقظت منه، هكذا اعتبرته.

مضت أيام، وكانت أم حسين توصلت لأحدٍ غير عبد العزيز يكتب الخطاب لولديها، وحددت فيه موعد "العُرس وكتب الكتاب"، ومن خطَّ الخطاب الذي لا يصل أذاع الخبر، والبلدة كلها عرفت بهذه الزيجة.

كان سيد الجندي متزوجًا من قبل، ولا يريد أن يعيد الكرة مرة أخرى، فتمت الاتفاقات وقراءة الفاتحة في عجالة.

قبل العُرس بيومين، ملأت آمال رغبة عارمة بأن ترى عبد العزيز وتحدثه، كانت قد اشتاقت له، تقول كان حنونًا لم تعرف معنى الحنية سوى منه، حرمان أمها من أولادها جعلها عصبية غليظة،

شكل حنيته بالنسبة لها كان عندما يحصد القمح معها هي وأمها، كان يسعى لحصد أكبر قدر حتى يريحهما، وكان يخبرها أن فتيات الجامعة لم يكن في مثل جمالها الصافي.

أصرّت أن تراه قبل العُرس، فذهبت دون إذن أمها إلى حقله تبحث عنه، لم تجده فدخلت تحت ظلال شجرة العنب تنتظره، وجدت كتابًا، وبقايا طعام، وعدة الشاي. فلم يكن له سوى أرضه، وكتب دراسته، وحماره. ظلت تنتظره حتى يئست من مجيئه، فنهضت لتعود، رأته دخل عندها بجلبابه الأغبر ليربط حماره في الظل؛ فقد كان يحنو عليه كثيرًا أيضًا، ويقول إيمانويل كانط: "نستطيع أن نحكم على قلب الإنسان من معاملته للحيوان"، وقد كان يعامل حماره برحمة حتى العصا كان يلطفها لأجله، ولا يستعملها سوى في الضرورة، إذن هو حنون كما كانت تراه.

رأى آمال فاندهش، وقال بنصف ابتسامة:

- مبارك يا عروس.

- الله يبارك فيك.

ردت آمال وكأنها لم تبعه، كان في مُخيلتها أنها لم تبعه، بل أطاعت أمها ثم أنهما لم يكونا في علاقة حقيقية، بل كان حبًا فقط بالنظرات والتلميحات البائسة.

قال وهو يربط الحمار دون أن ينظر لها:

- أم حسين تريد شيئًا؟

- لا.

لم يرد انتظر ما تقول، فأكملت آمال بعد تردد:

- هل أنت غاضب مني؟

نظر لها وقال حزينًا:

- لست غاضبًا منك يا آمال، أنا حزين عليكِ.. لقد باعتك أمك بالمال.

- أمي قالت أنها تريد مصلحتي.

- ما مصلحتك في زواجك من رجلٍ متزوج؟! عمره يوشك أن يضاعف عمرك ثلاث مرات؟

- أمي لن تضرني.

قالت ذلك وهي ترحل، مسكها من معصمها، التفتت له فلم يجد ما يقوله، نظرت في عينيه المنكسرة فقال:

- آمال، أنا أحبك.

- ولكني سأتزوج!

- أنا أحق بكِ منه.

كانت آمال مشاعرها مختلطة ومشتتة، بين سعادة لسماع كلمة أحبك من شخصٍ تحبه وبين حزن؛ لأنها ستتزوج شخصًا آخر، وكان عبد العزيز كأنه مخدر ولم يعِ ما يفعل أمام سطوة جمال آمال وحبه لها، كان قريبًا منها بما يكفي لأن يقبلها، فدنا منها ولثم فاها، ربما أراد أن يودعها على طريقته أو حاجة في نفسه فخرجت منه تلقائيًا.

الإنسان لا يفهم نفسه جيدًا على كل حال؛ فالمشاعر تتغير، والأفكار تتغير، والشكل نفسه يتغير، وهناك أفعال تصدر دون إرادةٍ، وكلمات تخرج بغير حساب يسمونها الناس زلة لسان. أعتقد أنه بداخل كل إنسان مجموعة أشخاص يتصارعون، ليخرج واحدًا منهم يراه الناس، وفي مواقف خاصة يظهر شخصًا آخر من الأشخاص الأخرى بداخله لا يعرفه الناس فيقولون فلان تغير، وهو كما هو بل طفيا شخص آخر لم يعرفوه، على السطح وحسب.

تفاجأت آمال وتفاجأ هو، بعد انتهاء القبلة ظلا ينظران لبعضهما بذهول وخجل قرابة خمس ثوانٍ، حتى ركضت آمال دون أن يتكلم أيًا منهما.

عادت آمال للبيت ذاهلة رأتها أم حسين، فقالت:

- أين كنتِ؟ أم هنية جاءت لتعدك للعرس وجلبت الحناء.

قالت آمال بخوف وتردد:

- لا أريد الزواج من سيد الجندي.

تفاجأت أم حسين، وقالت عاقدة حاجبيها:

- ولِمَ؟

- لا أحبه.

- ستحبينه فيما بعد.

تقلصت ملامح آمال وذرفت دمعة وحيدة وهي تقول بصوتٍ نصف مسموع:

- أنا أحب عبد العزيز.

جن جنون أم حسين، وقالت:

- اسمعي يا بنت عرسك بعد يومين.

مسكتها من أذنها وهي تتبع:

- لا أريد أن أسمعك تقولين مثل هذا الكلام مرة أخرى.

قالت ذلك وتركتها ودلفت المطبخ لتعد الحناء استعدادًا كما أمرتها أم هنية؛ لأنها ستعود مرة أخرى خلال نصف ساعة، تكون آمال قد حضرت.

*****

بعدما أجرت أم هنية جلسة نظافة شاملة لآمال، ولفت شعرها الناعم بالبكرات وثبتته بالبنس، شرعت ترسم لها حناء على ذراعيها، كان أمامهما مرآة مكسورة، ترى آمال انعكاسهما فيها، كانت تنظر لوجهها في المرآة بوجوم، تفكر وتنظر لشفتيها المكتنزتين الحمراوين دون أصباغٍ، هنا قبلني

عبد العزيز ذو الشارب الخفيف والبشرة الصافية، وبعد غد سيقبلني سيد الجندي ذو الشارب الكث المخيف، والبشرة الخشنة المليئة بالثقوب، أغمضت عينيها عند هذا التخيل، فقالت أم هنية بعدما انتهت من ذراع تطري على نفسها وهي تنظر له:

- يا حظ سيد.

- ما علاقة ذراعي والحناء به؟

قالت آمال.

- سيلتهمه.

أجابت أم هنية.

تقززت آمال من التعبير، دائمًا ما كانت تكره أحاديث النساء وتلميحاتهن السافرة التي لا تفهمها أحيانًا، فقالت:

- لن أسمح بذلك.

ضحكت أم هنية بملء فيها وهي تقول:

- ما زلت صغيرة، لِمَ لا تخطلتين بالفتيات اللواتي في عمرك، إنهن يعرفن كل شيء، دائمًا ما آراك وحيدة أو مع أمك.

- أمي لا تحب أن أتركها وحدها.

- مسكينة أمك.

انتقلت للذراع الآخرى تشرع في نقشه بالورود كالأول، وبعده ابتدت في ساقيها وبعدما انتهت أم هنية وخرجت من الحجرة، وشوشت أم حسين في أذنها وغادرت وهي تطلق زغرودة متبوعة بالتهنئة والتبريكات.

فعقدت أم حسين جلسة مع آمال تفهمها فيها كثيرًا من الأمور عن تدبير بيتها، ومعاملة زوجها، وشئون خاصة جعلت آمال تشعر بالخجل كثيرًا، وأنهت حديثها بقولها:

- الحياء مع زوجك تكلف مذموم.

لم تنم آمال ليلتها من كثرة التفكير، كان خضوعها لأمها مثيرًا للتساؤل.

*****

مر اليومان، وجاء موعد العُرس الذي اتسم بالبساطة، ارتدت آمال الفستان الأبيض الذي لم تشعر بزهوه، ووضعت لها إحدى الفتيات بعض مساحيق التجميل الصاخبة، وصنعت لها تسريحة كذلك، تليق بعروس ريفية.

جلست على أحد المقاعد، وجلس سيد على الآخر، ووراءهم كوشة مصنوعة من جريد النخل وبعض البالونات،

والآخرين حولهما يصفقون وواحدة بينهم تقرع طبلة وتغني الأغنية التراثية "يا حني الحلوين" بينما يردد الآخرين وراءها "يا حني"، وواحد من الشباب يرقص بالعصا في حلقة مجاورة لجمع الفتيات والسيدات.

لم يستمر العُرس نصف ساعة، وانتهى وانفض المعازيم، وصعد العروسان لغرفتهما في الطابق الأول من الدار الواسعة ذات الفناء التي تجمع العائلة، والزوجة الأولى وبناته الخمس في الطابق الأرضي.

كان بنات سيد الجندي أعمارهم بالترتيب خمسة شهور .. وعامين .. وأربعة أعوام .. وسبعة أعوام .. وثمانية أعوام، ولكنه لم يقنع بذلك وأراد ولد كعادة الشرقيين؛ فجعلها حجة لكي يتزوج من آمال الفتاة القاصر، متفجرة الأنوثة والجمال.

فكانت بيضاء، ذات عيون عسلية، وأنف مستقيم، وشفاه ممتلئة مكتنزة، ذات قامة متوسطة الطول، وقوام حسن ممتلئ قليلًا، تمشي تتهادى في ثوبها الريفي، وحجابها الذي يتدلى منه جديلتاها البنيتان، فتصرع لُب من يراها.

تقدم لخطبتها الكثير وهي في سن صغير، ولكن لم يفز بها سوى سيد الجندي الذي كان يكبرها بـ23 عام هو في الثامنة والثلاثين، وهي في الخامسة عشر.

كانت الساعة الرابعة عصرًا، عندما انتهى العُرس، وهذا وقت مثالي لانتهاء الأعراس في الريف،

غادر الجميع عدا أم حسين، ظلت بالأسفل مع زوجته الأولى الغاضبة، وأمه المرحبة بهذه الزيجة.

*****

دخلت آمال الشقة، دارت ببصرها حولها، رأت أريكتين مقابلتين لبعضهما، والأرضية بلاط ملون مفروش بالكليم، وجوار كل أريكة طاولة صغيرة إحداهما فوقها مزهرية بها باقة ورود بلاستيكية والأخرى فوقها مصحفًا، والجدران مطلية بالجير الأزرق، جدار معلق به أفرع ورود

بلاستيكية، والجدار المقابل معلق به إطار لسورة الفلق، والجداران الآخران تغطيهم الستائر البيضاء، واحدة تغطي باب الحمام والمطبخ، وواحدة تغطي بابيّ الغرفتين، مقارنة ببيتها السابق الذي كان أرضه من طين أعجبتها، ولكنها لم تفرح بذلك، كان شعور الخوف والفزع يسيطران عليها ومعدتها تؤلمها بشدة سألها:

- أعجبتك؟

أومأت برأسها، استشف من عبوس ملامحها إنها خجولة، فقال:

- تشعرين بالخجل أليس كذلك؟

لم تجبه بل ركضت تبحث عن الحمام لتتقيأ، استاء من ذلك، وقال بنبرةٍ لم تخف ضجره:

- ماذا بك؟!

كانت آمال مستندة على الحوض بكفيها تتقيأ، فقالت وأسنانها تصطك ببعضها:

- لا أعلم.

- ستكونين بخير، هيا اغسلي وجهك.

قال ذلك وتركها.

غسلت آمال الحوض ووجهها وخرجت، وجدته ينتظرها في الصالة على الأريكة، استأذنته أن تدخل الغرفة تبدل ملابسها، وتنام فقال:

- تنامين؟! ألم تتحدث معك أمك؟ أو إحدى النساء؟!

لم ترد آمال بل ابتلعت ريقها، نهض من مجلسه وجرها من ذراعها لغرفة النوم بقسوة، ولكنه شعر أنه لا بد أن يكون لطيفًا، فأجلسها على السرير، وقال بهدوء وصوت حانٍ بمثابة اعتذار:

- أمك بالأسفل تنتظر.

جلس أمامها ومرر يده ببطء على شعرها، ونزل عند عنقها وهو يدنو منها، فقالت بصوتٍ ضعيف وخائف:

- أريد أن أذهب لأمي.

أفسدت مزاجه فمسكها من شعرها بعنف، وقال:

- لم تعدي صغيرة، لقد كبرت وأصبحت زوجة ولك زوج أتفهمين؟!

*****

5 أكتوبر 1992

صبا

بعد عام ونصف من يوم الزفاف، جئت أنا (صبا) وأختي ود، خرجتُ للدنيا قبلها بثلاث دقائق لنساند أمي في معركة الحياة،

الطريف في الأمر أن أبي تزوج من أمي؛ لكي تأتِ له بالولد، فأتت له بفتاتين دفعة واحدة،

حتى بلغنا التسع سنوات لم تكن أمي حملت مرة أخرى، كانت في كل مرة تحمل يسقط الجنين، أوقات كثيرة كلما ضاقت عليّ الحياة أقول ليت حملنا سقط كغيره، ولكن من يواسي أمي المثخنة بالجراح؟! من سيربت على كتفها بيدٍ رحيمة ليخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام؟

أخذت جدتي ود ترعاها؛ لكي تخفف الحِمل عن أمي، هذا ما كان ظاهرًا ولكن الحقيقة أنها أخذتها؛ لكي تؤنسها في وحدتها، بعدما زوّجت أمي أصبحت في وحدة مطبقة، كانت كل مرة في ذروة يأسها تعزم على أن تذهب لها بيت زوجها وتأخذها من ذراعها، وتخبرهم بأنها لم يكن عندها فتيات للزواج، ولكنها كانت تهدئ من روعها قبل أن تفعل، فجاءت ود في الوقت المناسب لتبدد وحدتها.

أما أبي كان لن يمانع إذا أخذتنا نحن الاثنان؛ فقد كان يريد ولدًا وحسب، فعندما اقترحت جدتي أن تأخذ ود كان رده "خذي الاثنين إذا أردت"؛ لذا كان من حظ ود إنها تربت مع جدتي التي أغرقتها بالرعاية،

والحب، والحنان رغم أنها كانت قاسية مع أمي بعض الشيء، ولكن بعدما فارقتها رق طبعها وحن قلبها، الوحدة جعلتها هشة وضعيفة، أما أنا فكان أبي يعاملني كابنة خطيئة لا ابنته.

لم تكن ود بعيدة كثيرًا عني، كانت جدتي تسكن قبل بيتنا بشارعين صغيرين، فكنت أذهب لود وتأتيني، وجمعتنا المدرسة كنا رفاق وأخوات وهذا كان عظيم.

*****

21 سبتمبر 1998

اليوم الأول في الدراسة، جاءت جدتي الساعة السابعة والنصف، وفي يدها ود بمريول جديد، وحقيبة جديدة، وحذاء جديد، وجديلتان معقودتان بشرائط حمراء، كانت جميلة حقًا، رأيتها فابتسمت ولكني شعرت بالحزن،

كنت أنتظرهما أنا وأمي لنذهب للمدرسة في صحبتهما،

تفاجأت جدتي بي أرتدي ملابس قديمة من إحدى أخواتي من أبي، فعز عليها ذلك وقالت لأمي غاضبة:

- أين سيد؟

- نائم.

- أيقظيه.

- أمي، لا أريد مشاكل أرجوك.

- لما لم تخبرِني أجلب لها ملابس جديدة كما جلبت لود؟

خرج أبي من خلف أمي وأثر النوم على وجه، وقال وهو يتثاءب:

- أبوها ما زال حيًا لم يمت.

- ولكنه كالميت، إذا كانت ظروفك لا تسمح لم أكن لأتكلم.

- هل تظنين أني أجمع المال من أجل ابنتك وابنتها فقط، انظري بالأسفل ستجدين مدرسة بالدار.

تدخلت أمي قائلة:

- هيا يا أمي، سوف نتأخر.

تجاهلت جدتي ما قالت أمي، واستطردت:

- على الأقل عاملها كما تعامل من بالأسفل، ولكن أن تذهب ابنتك لمدرستها حزينة وجميع أقرانها يرتدون ملابس جديدة هذا لا يرضي أحد.

- لكنه يرضيني، ولا تتدخلي في شئون لا تخصك، ابنتي لم تذهب للمدرسة عارية.

جرتني أمي من يدي على الدَّرج وهي تقول:

- هيا يا أمي، سنتأخر.

قالت جدتي قبل أن تغادر:

- سأظل أندم على زواج ابنتي منك.

وأخذت ود ونزلت وخلفنا فقال أبي بصوت مرتفع بعض الشيء:

- وأنا أيضًا نادم على تلك الزيجة الشؤم، وأعول ابنتك كرامة مني.

كلمات قاسية، اخترقت أذننا ولكننا تظاهرنا بعدم الاهتمام؛

فظاظة أبي كانت تجعلني دائمًا أتخيل الكلمات القاسية إنسانًا ضخم البنية، ملامحه بشعة، ومخيفة يديه مقبوضتان، يلكم الموجه له الكلمات على أذنه، كنت أرى الكلمات وهي موجه لكمات على أذن أمي، كنت أتخيل جسدها يرتج على إثرها، ولكن أمي تقاومها بالتشبث بأصابع قدميها في الأرض.

ونحن في الطريق، ظلت جدتي تكيل السباب لأبي وتعطينا النصائح حتى وصلنا، كان طابور الصباح قد انتهى ورأينا التلاميذ يصعدون في صفوفٍ للفصول، فصعدنا بعدهم، استقصت أمي عن فصلنا كان في الطابق الثاني (1/ 4) جميع الدكك قد امتلأت فأخبرنا المعلم أن نجلب دكة من أحد الفصول، ذهبت جدتي وجلبتها هي، وضعتها لنا جوار الدكة الأولى فسدت الطرقة التي تحاذيها، فقال لها المعلم أن تضعها في آخر الصف لم توافق، ولكن أمي قالت:

- حسنًا.

ووضعتها لنا في آخر الصف، حتى لا تفتعل جدتي مشكلة أخرى.

قبلتني أمي، وقالت:

- سأفتقدك.

وواصلت: لا إله إلا الله.

فقلت: محمد رسول الله.

وبالمثل فعلت جدتي مع ود.

عام 2000

ونحن في الصف الثالث الابتدائي بعد عشرة أيام من الدراسة، قامت الانتفاضة الفلسطينية الثانية، ومات الكثير من الفلسطينيين، ومات محمد الدرة بحضن أبيه.

شاهدنا جميعًا هذا المشهد الذي أدمى قلوبنا قبل أعيننا، بكينا أنا وأمي، وأبي أيضًا بدا أنه تأثر ولكنه أخفى تأثره بفظاظته المعتادة، وقال:

– ماذا لو أنصت ياسر عرفات لكلام السادات وأجرى معاهدة سلام؟

لم يكن ليحدث ذلك كله.

لم ترد أمي ولا أنا فواصل:

– هذا مصير من يبيع أرضه.

أسطورة كاذبة صنعها الأغبياء على أكثر شعب يقاوم من أجل تراب أرضه، وصدقها المختلون، يبدو أن القضية الفلسطينية تختار بعناية من يؤيدها، إنها قضية الشرفاء والأحرار فقط.

في اليوم التالي، في المدرسة وقت الانصراف، تجمع جميع تلاميذ مدرستنا مع المدرسة الإعدادية والثانوية اللتين بالجوار، وظلوا يهتفون "بالروح بالدم نفديكِ يا فلسطين".

كانت الهتافات تصدر من حناجر مجزوعة حقًا، والجميع كان حزين لما حدث حتى أن ود قد رسمت محمد الدرة مقتول بحضن أبيه من التلفاز من فرط تأثرها، أرادت أن تبقيه حيًا في دفترها. رسمة لم تكن دقيقة، ولكن من

يراها يعلم أنه الشهيد محمد الدرة، لم أنس أبدًا هذا اليوم الذي أشعل فينا جميعًا روح القومية والحماس.

*****

2001

كنا في الصف الرابع، حين اختارني أستاذ جرجس المسئول عن النشاطات؛ لتمثيل أحد الأدوار في حفل عيد الأم مع بقية التلاميذ، الذين سيكون لهم دور في الحفل.

اختارني نظرًا للباقتي وفطنتي على حد قوله، كان دائمًا يقول لي:

- أنت ذكية ولكنك دومًا شاردة، هذا الشرود سيهلكك يومًا ما.

بعدما جمع كل المعنيين بالأمر، نزلنا المكتبة وجلسنا ملتفين حول الطاولة المستطيلة، وتوسطنا أستاذ جرجس الذي أخذ يحدثنا عن حفل عيد الأم ويوزع علينا الأدوار، وبينما نحن مندمجون هبت رياح من النافذة، أسقطت كتابًا من أحد الأرفف، فقال أستاذ جرجس برجاء:

- أعيدي الكتاب لموضعه يا صبا من فضلك.

ذهبت لأضعه، جذبني غلافه المليء بالرسوم، كان عنوانه قطر الندى تصفحته فوقعت عيني على جملة تقول "وأصبح زوج رئيف حنونًا محب لأطفاله"، فجذبني الكتاب ظننت أنه فيه الطريقة التي ستجعل أبي يرأف بي وبأمي، شرعت أواصل القراءة، فقال أستاذ جرجس بنفاد صبر:

- هلّا تضعين الكتاب وتعودين لموضعك؟

وضعت الكتاب وعدت لمكاني، ولكن عقلي لم يعد بل شغله الكتاب، لاحظ أستاذ جرجس شرودي فقال:

- اصعدي لفصلك يا صبا لست بحاجة لك، يبدو أن ذهنك لم يكن خاليًا كالعادة.

- هل لي بأخذ الكتاب؟ أم لا بد أن أتصفحه هنا؟.

- يمكنك استعارته، خذيه وسأدون اسمك، معك أسبوع من اليوم حتى تعيديه.

أخذته وصعدت للفصل، الذي كان يعج بالفوضى؛ لأن معلمه الآن في المكتبة، كنت سعيدة بالكتاب حتى أن سعادتي به طغت على حزني لإقصائي من الحفل، رأتني ود أدخل الفصل فتركت جمع الفتيات واستقبلتني بفضول؛ لتعرف من أعطاني الكتاب، ولمَ عدت سريعًا فأخذت الكتاب من يدي قبل أن نجلس في دكتنا الأخيرة، مرت على صفحاته سريعًا، وهي تقول: من أعطاكِ هذا ولمَ؟ هل ربحته؟

جلسنا وأنا أقول:

- أستاذ جرجس أعطاه لي لمدة أسبوع.

جذب ود الرسم فراحت تنقل في دفترها بعض الرسومات، فقلت:

- هذا الكتاب سيخبرني كيف أجعل أبي حنونًا؟.

ردت وهي لم ترفع رأسها عن دفترها:

- اتركيه وتعالي معي عند جدتي؛ إنها لا تصرخ في وجهي ولا تضربني.

– قلت ذلك لأمك كثيرًا أن نتركه ونذهب عندكما، ولكنها لا توافق.

– إذًا تعالي أنتِ، واتركي أمك معه.

– لا، إنه يضربها وأنا من يمسح دموعها ويربت على ظهرها، من سيفعل ذلك إذا تركتها؟ لا أحد يحبها هناك، مع أنها أكثرهم طيبة هي وفاتن أختنا.

– أظن أن الشرير لا يحب الطيب؛ لأن الطيب أطيب منه. أليس كذلك؟

أجبتها:

– ألم تسمعي أستاذ عادل عندما قال يومًا الشرير لا يحب أحدًا قط حتى نفسه.

– لما؟ هل يوجد أحد لا يحب نفسه؟!

– قال لأنه يزعج الجميع منه ولا يجعلهم يحبونه، إن كان يحب نفسه كان سيحرص على حب الناس له.

كان حديثنا بمنطق الأطفال العفوي، ولكن جملة ود العشوائية حفرت في ذاكرتي، أضحك كلما تذكرتها "الشرير لا يحب الطيب؛ لأن الطيب أطيب منه"

*****

في هذا اليوم، عدت من المدرسة وجدت أبي يعنف أمي؛ لأنها تأخرت في الرد على جدتي التي كانت تنادي عليها من الأسفل، كانت أمي تبرر له تأخيرها بأنها كانت تنتظر جوار قدر الحليب على النار حتى لا يفور، فركلها بركبته ركلة قوية أسفل بطنها، وهو يقول:

- أمي أهم من الحليب ومن أي شيء آخر.

رغم أن الحليب إن كان سُكب لكان عنفها أيضًا.

لا أعلم هل كان أبي مجرمًا أم ضحية؟، ضحية لتربية خاطئة جعلته يقدس أمه، ويفعل ما شاء من الخطايا. أم أنه ضحية لعادات مجتمع تبيح ضرب الزوجة، ولا تبيح ترك نعل مقلوب، أم أنه كان مجرمًا بحق ولا علاقة لذلك بقسوة قلبه.

منذ أعوام توقفت عن رؤية المجرم في نظر المجتمع بأنه مجرم دائمًا، ما أراه ضحية للعادات والظروف والبيئة المحيطة والأفكار السامة؛ لأنه إن كان في بيئة أخرى وظروف أخرى ربما لم يصبح كذلك، فجميعنا نولد أنقياء.

ارتعدت أوصالي على إثر تلك الركلة، وسقطت أمي أرضًا فتركها أبي ونزل، اقتربت من أمي بفزع أساعدها على النهوض، ولكني أحسست بسخونة الدماء التي لامست ساقي ولاحظت سكون أمي تمامًا فصرخت قائلة:

- أمي.

عدة مرات بصوتٍ مرتفع.

جاءت زوجة أبي وبعض بناتها، فقالت فاتن إحداهن:

- ما هذه الدماء؟

وقالت زوجة أبي بخوف حقيقي:

- ماذا حدث؟

قلت باكية:

- أبي ركلها بقوة.

قالت زوجة أبي:

- إنها تنزف لا بد أن تذهب للمصحة.

تركتهن وركضت نحو بيت جدتي أخبرها، فأخذت جدتي "الشاش" تضعه على رأسها المعصوبة، وركضت معي بردائها الأسود دون نعل، وجاءت خلفنا ود بدميتها التي صنعتها لها جدتي من قصاصات القماش.

دخلت جدتي البيت وهي تسب أبي وأمه وتتوعده، صعدنا عند أمي وصعد أبي معنا، حملها لنذهب بها إلى أقرب مصحة، أدخلها في سيارته الربع نقل التي ينقل فيها البهائم، وضعها في الصندوق الأمامي وجلست جدتي جوارها، وصعدنا في الخلف أنا وود وزوجة أبي، كل ذلك حدث سريعًا.

المأساة المشتركة بين أمي وزوجة أبي خلقت بينهما نوعًا من المودة والرحمة، الآلام ذاتها التي يشعران بها من وقوع ظلم أبي عليهما جعلتهما يشفقان على بعضهما، فانزاحت الكراهية وحل محلها التعاطف والتفاهم.

طال الطريق، وأنا أبكي وأخشى فقدان أمي وزوجة أبي تربت على ظهري وتهدئني، لم تكن في قريتنا "سدس الأمراء" مصحة فكان طريقنا لمصحة مركز ببا.

دخلت أمي قسم الطوارئ، انتظرنا نصف ساعة حتى خرج لنا أحد الأطباء قال لجدتي وأبي:

- النزيف لا يتوقف.. ستخضع الآن لعملية تستأصل فيها الرحم؛ حتى لا تفقد حياتها.

انهارت جدتي واتجهت نحو أبي ضربته في كتفه وهي تسبه، وتوالت الضربات منها حتى مسك يدها ووقفت زوجة أبي تحيل بينهما، فقالت جدتي بصوت مرتفع:

- أتحسب أنها لم يكن لها رجال؟ اليوم سأرسل خطاب لحسين وإبراهيم سيأتيا ليهدا الدنيا فوق رأسك.

فقال أبي متهكمًا:

- لقد وقعت في زوجة عاقة لها أم مجنونة، حسين وإبراهيم قد ماتا وشبعا موت (ولعوا بجاز).

توقفت جدتي عن عراكه، خمدت يدها وتعلقت في الهواء، ثم هوت جوارها وانهمرت من عينيها الدموع، راع ود بكاء جدتي، فكانت بمثابة أمها فتشبثت بدميتها، وقالت لأبي بخوف وتردد:

- يا ابن الكلب.

أراد أن يضربها، ولكن العاملين بالمصحة وذوي المرضى كانوا قد اجتمعوا على صوت عراك جدتي وأبي، فخلصوا بينهما، أخذتنا جدتي أنا وود تضمنا بجناحيها وهي تبكي ونحن نبكي، فقال أبي:

- ابنتك طالق.

وجر زوجته وغادر.

كيف يكون إنسانًا قاسيًا لهذا الحد؟

كيف كان في يومٍ ما طفل بريء، تتقوس شفاهه للأسفل إن رأى أحدًا يبكي، ثم يصبح هكذا؟ كيف نالت الحياة اللعينة من قلبه فلوثته لهذا الحد!

لم يكن أبي ضحية، بل كان مجرمًا طاوع شيطانه وطرد الرحمة من قلبه.

بعض الناس رأوا جدتي وهي تركض حافية ونحن خلفها، تكاثرت الحكايات حول ما حدث، ولكن هناك خيوط في الحكاية دلتهم على مكاننا في المشفى، أتى البعض بدافع الفضول والبعض بدافع الإطمئنان حقًا، كان من ضمن الفئة الأخيرة عبد العزيز المحامي، أصبح عبد العزيز محاميًا.

حاول أن يهدئ من روع جدتي حتى سكت نشيجها، وسكنت وقصت له ما حدث، شعر بالأسف وأخبرها أن تحرر محضرًا لأبي لا بد أن يلاقي عقابه.

*****

تعاقبت الأيام كعادتها، ولم تتوقف وبالوساطة والرشاوي تمت تبرئة أبي وكأن شيئًا لم يحدث، بينما أمي حُرمت من أن تكون أمًا مرة أخرى وانتزع منها رمز أنوثتها،

كان ما حدث شيء فظيع لا يمكن تخطيه بسهولة، ولكن دائمًا يمكننا الهرب.

هربت بالقراءة لحيواتٍ وعوالم أخرى، كان لي موعد مع مكتبة المدرسة أسبوعيًا، أعجب ذلك أستاذ جرجس وشجعني كان ينتقي معي العناوين،

كنا في اختبارات نهاية العام السادس الابتدائي، حين جاء لي في اللجنة وقال لي:

- بعد نهاية الاختبار، مرّي عليّ في غرفتي.

ذهبت له بعد انتهائي، وكلي فضول لأعرف ماذا يريد، تخيلت كل شيء عدا ما كان حقيقيًا، دخلت عنده فقال:

- اجلسي

جلست فأخرج من أحد أدراج المكتب المعدني كتابًا من كتب الجيب خاص بسلسلة فلاش، وقال:

- اليوم نهاية العام الدراسي، ربما لن تستطيعي أن تستعيري في الإجازة، ولكني كنت في القاهرة أمس فجلبت لكِ هذا الكتاب هدية، أنا متأكد أنه سيعجبك.

أخذته مبهورة، كان في غلافه الكيسي فلم أستطع تصفحه، كان لأول مرة يأتيني أحد بهدية، فقلت ممتنة وأنا عاجزة عن النطق:

- شكرًا .. شكرًا لك.

فتجاهل ما قلت وأكمل:

- تعرفين، عندي ورشة نجارة في القاهرة يديرها أخي، وأذهب له من مرتين لثلاث في الشهر وربما أكثر.

أومأت برأسي فأتبع:

- كلما ذهبت سأجلب لكِ كتابًا جديدًا من تلك السلسلة.

وددت لو أعانقه وأقبله في وجنته، ولكني اكتفيت بابتسامة واسعة وقول "شكرًا" للحظة تمنيت أن يكون أبي.

من وقتها أصبحت عائلة فلاش عائلتي، تعرفت على ميدو، وسوزي، ووالدهما، وجدة والدهما، والمواطن المطحون، وعلام ومغامراته الطريفة اللذيذة، والكلب هرقل.

*****

بينما ود هربت في الرسم كانت تملك موهبة عظيمة حقًا؛

ملأت جدران غرفتنا التي كانت من الطوب الأحمر بلوحاتها.

الجانب الإيجابي فيما حدث أنني وود أصبحنا معًا وتحت سقف واحد،

رغم أن السقف كان من الخشب، وبيت جدتي كان متواضعًا جدًا به ثلاث حجرات، وفناء فيه فرن طيني، ومعزتان وبعض الدجاج والأرانب، ولكنه كان دافئًا جدًا جدًا ومليء بالحب، نستيقظ صباحًا ندخل أنا وود عند

الدجاج، نتفقد البيض لنجمعه ونعطيه لجدتي، التي كانت تأخذه لتقدم لنا منه على الفطار مع الخبز والجبن (القريش) وتبيع ما يفيض عن الحاجة.

وفي المساء، بعد عودتنا من المدرسة و(الكُتاب) نشاهد التلفاز، نفتح على قناة "سبيستون" ونغني معًا بصوتٍ مرتفع عندما تأتي مقدمة القناص:

"قد لمعت عيناه بالعزم انتفضت يمناه

في هدوء الليل من هو الصامد المغامر في وجه السيل

يبعد عن عينيه الراحة يتحدى خصمًا في الساحة

يرمي ويصيب الأهداف يسعى دومًا لتحقيق الإنصاف

وخيال أبيه في الأحلام سيظل البطل القناص بكل الصبر والإخلاص

يعمل باجتهاد وعلى أهبة الاستعداد

يرمي ويصيب الأهداف يسعى دومًا للإنصاف"

وبعد ساعات من المشاهدة الممتعة نذاكر دروسنا،

كانت جدتي قد دخلت جمعية لتدخر مال "طبق الدش" الذي تريده ود، كان ثمنه باهظًا حينها، فقد رأته ود عند بيت أبي عادل أحد جيراننا الأثرياء، وألحت على جدتي أن تجلبه لها؛ لأنها تحب مشاهدة السينما والكارتون.

وكان يوم الثلاثاء اليوم المخصص للخبيز، كنا نجلس جوار جدتي وهي أمام الفرن وأمي تساعدها بطرح العجين على المطرحة، ننتظر نهاية الخبيز لتعد لنا جدتي شطائر بالسكر، كانت رائحة الخبز الشهية جدًا تخترق أنوفنا وتجعلنا ننتشي، إن كنت مسئولة عن شيء في هذا العالم وقتها كنت سأدرج

رائحة الخبز في لائحة أنواع الإدمان.

كانت تنتهي جدتي من الخبيز، وتتجه نحو الجدية تحلبها وتعتصر ضرعها لتشربنا الحليب الطازج، وعندئذ كانت تهلك تمامًا فتنام ساعتين أو أقل قبل أن تستيقظ على صوت عراكنا أنا وود، ونحن نلعب بالعرائس فقد صنعت لي جدتي دمية من قصاصات القماش مثل ود.

أظن أن أعمال البيت كانت هي الهروب بالنسبة لجدتي، كما كانت القراءة بالنسبة لي والرسم بالنسبة لود،

بينما كانت أمي أسيرة جروحها التي لا تندمل، دائمًا ما كنت أتساءل كيف لقلبها الصغير أن يتحمل ذلك القدر من الفواجع والأحزان، موت أخويها دون أن تراهما، ثم أبيها، ثم حرمانها من قصة حب كانت كالحُلم الجميل، ثم أبي الذي أيقظ فيها كل تلك الجروح بدلًا من أن يداويها، وزاد عليها أطنانًا من الحزن والأسى.

كنت أراها أحيانًا تبكي فأسألها "لِمَ البكاء؟"، فتقول وهي تمسح عينها بأطراف أناملها "ليس بكاءً وإنما طُرفت عيني".

ويوم الأربعاء، نسهر على فيلم جديد الذي كان يأتي برعاية برنامج "تذكرتين سينما"،

نضع وسادة قريبة من التلفاز، ننام عليها ونمد أرجلنا نسندها على الطاولة الموضوع فوقها التلفاز، كانت ود تحب السينما كثيرًا وأنا أيضًا، ولكن ود كانت تكتسب معرفتها وتستمد معلوماتها منها، كانت ذاكرتها كالردار الذي يلتقط كل شيء.

وجدتي قبل النوم تقص لنا الحكايا الأسطورية كليلة والذئب .. وذات الرداء الأحمر .. والفيل والأرانب، ومن حين لآخر كانت تحكي لنا عن حسين وإبراهيم، في يوم ما حكت لنا عن أول يوم ذهب فيه حسين للمدرسة، وكيف اشتاقت له طوال اليوم حتى عاد وأخبرها أنه مل ولا يريد أن يدرس مرة أخرى، ضحكت وهي تقول:

- مَلّ منذ اليوم الأول، قال أنه سيذهب للغيط مع أبيه بدلًا من الدراسة.

ضحكنا جميعًا، وأمي التي كانت تصفف شعرها بالقرب منا ابتسمت فقلت دون قصد مني: رحمه الله.

نغزتني ود في قدمي، ونظرت لنا أمي تترقب ما سيحدث، توقفت جدتي عن الضحك وقالت غاضبة:

- أعاده الله لنا سالمًا.

فقالت أمي تلطف من حدة الموقف:

- الرحمة تجوز على الحي والميت يا أمي.

لا أعلم هل جدتي كانت حقًا تصدق أن ولديها لم يتوفيا؟ أم أنها كانت تضحك على نفسها؟ تعطيها أملًا زائفًا تعيش عليه، ووهمًا يجعل لحياتها معنى وغاية.

بنظري أمل زائف خير من لا شيء؛ فالحياة بلا أمل ولا هدف تصبح حياة لا حياة فيها، كالمريض الذي ينتظر موعد موته لتنتهي آلامه المتواصلة، والانتظار المتعب خير من القنوط والكآبة.

ذهبت في يوم الخميس لبيت الأستاذ جرجس؛ فقد كان ذلك موعدي من كل أسبوع لآخذ العدد الجديد من الكتاب،

فتح لي شخص غريب هذه المرة، كان يبدو في بداية العشرينيات تفحصني، وقال:

- ماذا تريدين؟

- أريد الكتاب.

- أي كتاب؟

- كتاب فلاش الذي يجلبه لي الأستاذ جرجس كل أسبوع من القاهرة.

عقد حاجبيه قائلًا:

- أبي يجلب لكِ كتابًا كل أسبوع؟

عرفت أنه ابنه، ولكني كنت أراه لأول مرة فقلت:

- أجل ما الغريب في الأمر؟

- الغريب إنني أحتاج سيارة ولم يوافق.

قلت بحرج:

- لا أحب أن أفسد علاقتك بوالدك ولكن...

ضحك بملء فمه فقاطع حديثي، وقال:

- أنا أمزح.. حتى إن كان حقيقيًا ما أقول؛ فالسيارة ثمنها أغلى من الكتاب بكثير .. أنتِ سهلة الخداع.

استفزتني جملته الأخيرة، فقلت:

- لمَ لا تكون أنت مخادع محترف؟.

- أنتِ سريعة البديهة أيضًا. ما اسمك؟

- صبا.

- بصرة.

قلت باستغراب:

- اسمك صبا أيضًا؟

ضحك قائلاً:

- اسمي صالح، أقصد إننا نحمل ذات الحرف.

تجاهلت ما قال، وقلت:

- أين أبوك؟

- غير موجود، ربما يأتي بعد قليل.

- سأنتظره خمس دقائق.

- ماذا سيحدث إذا لم يأت بعد خمس دقائق؟

- سأعود حزينة.

- وأنا لم يرضني ذلك.

انتهى من جملته، وأخذ الكتاب من خلف الباب أعطاه لي وهو يواصل:

- أبي تركه وأخبرني بأمرك.

عقدت حاجبيَّ قائلة بعدم فهم:

- ولمَ هذا الفيلم من البداية.؟

- حتى أطيل الحديث معك.

- ولمَ؟

- لأنك فتاة جميلة، ألم يخبرك أحد بذلك؟!

أربكتني جرأته وصراحته المفرطة، كانت لكنته قاهرية، ويبدو أنه لم يعرف مدى تحفظ البيئة الريفية، فقلت مفتعلة الضيق:

- سأخبر أباك بذلك.

انتهيت من جملتي وغادرت سريعًا.

عدت للبيت ولم أخبر ود بما حدث، رغم أنني لا أكتم عنها شيئًا، في هذا اليوم نمت سعيدة وظلت جملة صالح تتردد في ذهني "لأنك فتاة جميلة".

لأول مرة يخبرني أحدٌ بذلك، لأول مرة يمدح أحدٌ بي شيئًا غير عقلي، دائمًا ما كان الكثير يمدح جمال أمي وود التي تشبهها تمامًا أمامي ويستثنوني، كنت وود توأم غير متطابق ود بيضاء تشبه أمي، وأنا حنطية أشبه خالي إبراهيم كما تقول جدتي، ولكنني آخذ عيون أمي العسلية الواسعة؛ لذا فكنت أعد نفسي قبيحة، كنت أظن أن الجميلات هن أصحاب البشرة البيضاء فقط، ومدح عقلي كنت أعتبره بمثابة تعزية عن جمالي المتواضع.

فجاءت جملة صالح حطمت ذلك الاعتقاد بداخلي، جعلتني في حيرة أأنا جميلة حقًا؟ أم أنه يجاملني؟

ظللت أنتظر مرور الأسبوع؛ لأذهب مرة أخرى للأستاذ جرجس لأرى صالح، لربما يمدح جمالي مرة أخرى، أجل كنت ضعيفة لهذا الحد الذي يجعلني أبحث عن الإطراء كما يبحث الطائر عن عشه المفقود.

مر الأسبوع، وذهبت متشوقة ليس للعدد الجديد من الكتاب، ولكن لأثبت لنفسي أنني جميلة، ظللت أدعو أن يفتح لي صالح كالمرة السابقة واستجاب الله لي وفتح صالح قائلًا:

- تريدين الكتاب؟

- أجل.

قال آسفًا:

- ولكن أبي لم يذهب للقاهرة هذا الأسبوع.

خمد حماسي وقلت:

- حقًا؟

- أجل، ولكني أعرف أن ذلك سيجعلك تعودين حزينة؛ لذا جلبت لك هذه.

أخرج من جيبه قطعة حلوى، ترددت آخذها أم لا فقال وهو ما زال يمد لي يده:

- بدلًا من أن تعودي حزينة كثيرًا، تعودي حزينة قليلًا.

أخذتها وقلت:

- لمَ لا يكون هذا فيلم كالمرة السابقة؟

- حتى أطيل الحديث معك؟

- ربما.

– أبي لم يذهب للقاهرة هذا الأسبوع فعلًا، ولكن هذا لا يمنع إنني أحببت النظر لكِ وطريقتك التي تتحدثين بها، بالعادة أجد الفتيات هنا بسطاء للغاية، ولكنك مختلفة.

تركته وغادرت دون أن أعقب، بعد خطوتين نظرت خلفي وجدته يضحك،

ذهبت بعدها مرات كثيرة ولم أجد صالحًا مرة أخرى، كنت في كل مرة أعود محملة بالكتاب والخيبة، حتى تجرأت ذات يوم وسألت أستاذ جرجس "أين صالح؟"، قال أنه يعيش في القاهرة ويأتي في الإجازات فقط.

*****

2004

أصبحنا في بداية المرحلة الإعدادية أنا وود، ارتدينا الحجاب بحكم العادة، لم تجبرنا أمي أو جدتي على ارتدائه، بل بكامل إرادتنا ونحن نشتري الزي المدرسي، الذي كان عبارة عن تنورة رمادية وقميص أبيض اشترينا معه الحجاب ذا اللون الأبيض أيضًا.

منذ أول يومٍ في الدراسة كان حامد أحد طلاب الفصل لم ينقل بصره عن ود طالما أنها لم تره، كنت أراه دائمًا وهو ينظر لها والانبهار في عينه، ولا يلحظني حتى نبهت ود لذلك، نظرت له في تلك اللحظة فتلاقت أعينهما، يقولون من تلاقي الأعين يحدث الحب وقد حدث، أحبته ود حبًا جمًا في

تلك النظرة، كان حديثها معي لا يخلو من الحديث عنه، مثل رأيتِ اليوم وهو ينظر لي بضيق عندما أعطيت سليم القلم، اليوم ابتسم لي عندما جاوبت السؤال الذي لم يعرف إجابته أحد وكان سعيدًا أكثر مني، وهكذا.

ظلا أيام كثيرة يتبادلان النظرات، ولكن ود كانت تنتظر اعترافه، تعرف أنه يحبها بالإحساس ولكن يقينًا، لا.

وما فائدة الحب دون اعتراف؟ إنه يصبح كالشيك المُطعّم بمبلغ كبير ولكنه بدون رصيد.

أما أمي، فعبد العزيز ما زال يحبها وهي أيضًا ما زالت تحبه، ولكنها رفضت عرض زواجه حين طلب يدها من جدتي، عرفت أنه طلبها عندما سمعتهما يتحدثان في الأمر قالت:

- لا عبد العزيز ولا غيره، قلت لكِ لن أتزوج مرة أخرى، سأعيش من أجل بناتي وحسب.

- إنك ترفسين النعمة، رجل أعزب يعرف بناتك ويحترماه وفوق كل ذلك يحبك.

صمتت قليلًا وواصلت مترددة:

- وأنت تحبينه أيضًا.

- ولمَ لم توافقي من البداية قبل أن يحدث ذلك كله؟

- كنت مخطئة سامحيني.

جاء صوت أمي باكيًا وهي تقول: ولكن خطأك هذا كلفني خسارة رحمي يا أمي، وخسارة سعادتي للأبد.

فغر فمي وأنا وراء الحائط أسمعهما، بعض الأخطاء باهظة الثمن ولا يجدي العذر معها نفعًا، وكان خطأ جدتي فادحًا لا يمكن إصلاحه، كقطعة زجاج تهشمت إلى ألف قطعة، كل وسائل الأرض ستعجز عن إصلاحها..

جاءت ود رأتني استرق السمع فقالت:

- ماذا تفعلين؟

- سأقص لكِ، هيا نصعد للسطح نضع كيزان الذرة.

- ولكن الليل جن ولن نرى شيئًا!

- سنرى على ضوء القمر، هيا يا ود، أنا حزينة أريد أن أنظر للنجوم.

تسلقنا السلم الطيني صغير القُطر بحذرٍ، وصعدنا ومعنا كيس كيزان الذرة لتجففها الشمس؛ لكي تبيعها جدتي ولكي تأكل المعزة منها.

استلقينا نتلحف السماء ونتوسد بعض كيزان الذرة، فقالت:

- لما كنت تتنصتين؟

- أمك طلب يدها عبد العزيز المحامي.

- وهي وافقت؟

- لا.. ولكنها تحبه وهو يحبها، لقد كان يريد أن يتزوجها قبل أبوكِ ورفضت جدتي لتزوجها أبوكِ.

- من أين علمتِ؟

- سمعت أمك وجدتك وهما يتحدثان.

- ولكن كيف لجدتك أن ترفض عبد العزيز الشاب الصغير، وتزوجها لهذا البغل سيد الجندي المتزوج.

- ود أنه أبوكِ!

- ليس لي آباء إنني أكرهه.

- وأنا أيضًا أكرهه، ولكني لست بشجاعتك، حتى بيني وبين نفسي، أعتقد إنني مثل أمي في طبعها وأنت مثل جدتك.

- إذًا الطفل يتطبع بطبع من يربيه!

- ليس تمامًا، ولكن هذا له دور بالطبع، إن كان كذلك تمامًا لربما تطبعت بطبع أبيك.

- أعوذ بالله.

ضحكنا معًا بعد تلك الجملة فقالت ود:

- إن كان عبد العزيز يحب أمك وتحبه، وعارضت جدتي الزواج لتزوجها سيد الجندي؛ فهذا أكبر خطأ ارتكبته في حق أمي.

كانت ود محقة في إدانة جدتي، ولكن خطأ جدتي الأكبر حين اعتبرت أمي ملكية خاصة لها؛ لأنها كانت بوابة عبورها للدنيا، وأخذت قرارات مصيرية بدلًا عنها كحرمانها من الدراسة، ومن الذي تحب وغيره..

هذا أكبر خطأ يرتكبه الآباء في حق أبنائهم، أن يعتبروهم ملكية خاصة لهم، ويعاملوهم كقطعة صلصال يشكلونها كيفما شاءوا، وينسوا أنهم بشر من لحمٍ ودمٍ لهم رغبات وأحلام أخرى، أعتقد هذا شكل من أشكال العبودية التي يظنونها الناس انتهت منذ عصور، ولكنها ما زالت موجودة ومتأصلة بشكل متخفٍ في صورة الآباء المستبدين.

فتحت ود موضوعًا آخر وقالت:

- كان حامد اليوم يبدو حزينًا وشاردًا ولم ينظر لي. أتري لماذا؟

- ربما تعارك مع أحد.

- ربما.

الحالة التي كانت تعيشها ود ذكرتني بصالح بعدما محته الأيام من رأسي، فقلت بعد طول صمت وما زال نظرنا معلق بالسماء:

- هل لكِ أمنية تراودك؟

- أن أتزوج حامد وأن أصبح رسامة مشهورة أظهر على التلفاز.. وأنتِ؟

أغمضت عيني أتخيل وقلت:

- أن نتجول أنا وصالح في أزقة سان جرمان بباريس، بين مكتبات الكتب ومتاجر التحف القديمة، ونحن محاذيان نهر السين وهواء باريس يلفحنا.

- من أين عرفت تلك الأماكن؟

- من الكتب والقصص.

قالت ود متفاجئة كمن تذكرت شيئًا:

- صالح؟!

- أجل.

- من صالح؟

- ابن الأستاذ جرجس.

- أجننتِ! تحبين مسيحي؟

- ليس حبًا.

قاطعتني:

- لكن ماذا؟

- أنا لا أريد أن أتزوجه، أنا أريد أن أراه ونتنزه معًا، شيء كهذا. ألم تسأليني عن أمنية تراودني؟

اعتدلت ود وجلست متربعة جواري وقالت وهي تنظر لي:

- ولكن هذا هو الحب يا صبا!

- ليس حبًا.

- لكنك لم تخبريني بأمر صالح هذا من قبل.

- لم يكن شيئًا يستحق أن يذكر، رأيته مرتين في العام الماضي، المرة الأولى أخبرني أنني جميلة والثانية أعطاني قطعة شيكولاتة، ومن حينها وأنا أفكر فيه على فترات متباعدة.

- تذكري دائمًا أنه مسيحي وأنت مسلمة.

- حسنًا.

أصبحت عادة يومية عندنا أن نصعد للسطح عندما يحل الليل نراقب النجوم، ونتحدث في أمورٍ عدة.

في اليوم التالي ونحن نائمتان تحت النجوم قلت لود:

- هل تظنين أن جدتك حقًا تصدق أن خاليك حسين وإبراهيم أحياء؟ أم إنها تعرف إنهما ماتا ولكنها تمثل على نفسها؟.

- لا أعرف، تتذكري حين أخبرها سيد الجندي أنها ماتا وشبعا موت، ظننت حينها أنها صدقت أخيرًا، ولكنها عادت لما كانت عليه وكأن شيئًا لم يحدث.

- سامحك الله، لا أحب تذكر هذا اليوم.

- إنه لا يغيب عن رأسي.

قلت ألطف الجو:

- تتذكرين حين سببتِ أباك.

- اسمه سيد الجندي، قلت لكِ مرارًا ليس لي آباء.

قالت ذلك وضحكت وهي تستعيد ذلك اليوم وهي تقول بصوت طفولي أقل من ما هي عليه:

- يا ابن الكلب.

انفجرنا بالضحك معًا

*****

قررت جدتي أنه حان وقت ختاننا فأخبرت أمي، وعقدت أمي معي أنا وود جلسة تمهد لنا فيها هذا الأمر، قالت:

- الفتاة عندما تكبر قليلًا مثلكما هكذا لا بد أن تختن.

عقدت حاجبيّ قائلة:

- ولكني يا أمي، أرى إعلانات دومًا على التلفاز تقول لا لختان الإناث وتحذر منه!

صمتت أمي قليلًا، وقالت:

- هم يقولون هكذا ولكن الناس تفعل ما تريد.

تدخلت ود قائلة:

- ونحن نخاف ولا نريد، فلن نفعل ذلك.

قالت أمي بحنان:

- ولكنه أمر لا بد منه.

قلت:

- ماذا سيحدث إن لم نفعله؟

جاءت جدتي من خارج الحجرة ترد هي:

- ستكونان بلا عفة.

قالت ود:

- وماذا عن الإعلانات التي تقول لا لختان الإناث؟!

كان رد جدتي جاهزًا:

- هؤلاء فجار يريدوننا أن نصبح مثل الأجانب .. لا عفة .. ولا شرف.

فقلت:

- أنا لا أريد وأخاف.

- وأنا أيضًا.

قالت ود، فردت جدتي:

- أنا لن أضرك يا حبيبتي.

قلت:

- ولكن عندما تقول الدولة لا فهي لا تريد ضررنا أيضًا.

- ستخضعان لهذه العملية سواء شئتما أم أبيتما.

قالت جدتي ذلك وغادرت لتطعم الدجاج.

بكينا أنا وود لنُليّن قلب أمي التي كانت يهمها رضانا دائمًا قبل أي شيء، فقالت تقنعنا:

- كان من الممكن أن أجري لكما تلك العملية وأنتما صغار عن ذلك ولا تعيا كثيرًا دونما أن تعترضا ولكن كلما ذكّرتني جدتكما كنت أقول لها إنهما ضعاف البنية عندما يكبران قليلًا، وها أنتما اليوم أشتد عودكما فلا تصغراني مع جدتكما؛ لأنها ستلومني كثيرًا، هذا أمر لا بد منه.

- أمي، هناك فتيات تموت أثناء هذه العملية نسمع عنهم من حين لآخر، أنا لا أريد أن أموت، أريد أن أبقى جوارك أطول مدة ممكنة.

قلت ذلك فضمتني أمي لصدرها فواصلت:

- صدقيني يا أمي، عندما تحذر الدولة منه فهذا يعني أنه أمر خاطئ.

قلت ذلك فاتبعت ود:

- حتى اسألي عبد العزيز المحامي فهو يعرف كل شيء.

- إن اتضح لي أنه أمرٌ خاطئ فلن تفعلاه.

قالت أمي ذلك وتركتنا وخرجت لجدتي تتفاوض معها، دقائق وسمعنا صوت جدتي وهي تقول بصوت مرتفع:

- آمال! ماذا جرى لعقلك تجادلينني في الدين؟

انخفض صوتهما أصبح همسًا وبعد قليل جاءت أمي تقول:

- اطمئنا لن تجريان هذه العملية.

عانقناها أنا وود بفرحة عظيمة.

في هذا اليوم عندما صعدنا للسطح بالليل قالت ود:

- جدتك عنيدة كيف وافقت أمك؟

- ربما هددتها أمك أن تأخذنا ونعيش وحدنا بعيدًا عنها.

- أشعر بذلك.

*****

بعد عدة أيام، ذهبنا مع جدتي لنحصد القمح، بقيت أمي وحدها في البيت لتحرسه ولتبيع البيض إن جاء مشترٍ.

بعد الحصاد، استلقينا أنا وود على ظهورنا نلتقط أنفاسنا، بينما شرعت جدتي في وضعه في الدرّاسة وهي تجفف عرقها.

وعندما انتهت قالت:

- أشعر بالدوار، سأذهب لعيادة الدكتور عبد الخالق ليقيس لي الضغط.

ذهبنا معها، دخلنا حجرة الكشف معها أيضًا، لم تقس جدتي الضغط بل تم خداعنا، وجدنا اثنتين من الممرضات دخلتا وأغلقتا الباب وبالقوة أخضعانا للعملية.

لا أعلم كيف كانت تفكر جدتي، للمفارقة أنها أرادت ختاننا حماية لشرفها الذي دهسته بنعلها حين جعلتنا نكشف عن ما بين ساقينا للطبيب والممرضات بغير داعٍ وبغير إرادتنا!

ولكن كيف لجدتي التي تظن الشرف يوجد فقط في غشاء البكارة، أن تفهم ذلك؟

بعض الناس يظنون أنهم أحرارٌ؛ لأنهم ليسوا في سجن مادي ولكنهم بالحقيقة أسرى للعادات والتقاليد، وحديث الناس والأفكار الغبية، جدتي كانت من هؤلاء.

بعدما أفقنا من المخدر أدركنا ما حدث، لم نكن نشعر بألم جسدي ولكننا أطلقنا العنان لدموعنا، لم نبك حزنًا على القطعة التي انتزعوها منا، كنا لم نفهم حينها فداحة ما حدث، ولكننا بكينا؛ لأنه تم خداعنا على يد أحب الناس لقلبينا، أمي وجدتي.

عندما عدنا للبيت، وجدنا أمي تتظاهر بأنها لا تعرف شيئًا، أرادت أن تطمئن علينا فلم نرد، استنتجت ما حدث عرفت أننا غاضبتان منها، فأقسمت بأنها لم تكن على دراية، تعرضت للخداع معنا أيضًا، غضبت من جدتي تعاركت الاثنتان وارتفع صوتهما، كل منهما كان محق في وجهة نظره، ولكن ذلك لم يعدنا كما كنا. صدقنا أن أمي لم تكن تعرف فلا داعي للقسوة عليها، ولكننا أخذنا موقف من جدتي، حتى جمعتنا ذات يوم أنا وأمي وود، وقالت:

– يعز عليّ أن أبرر لكم فعلتي، كيف لا تكونوا على يقين من إني أحبكم ولا أريد إلا مصلحتكم؟.

من جديد جدتي تعاملت معنا على أننا ملكية خاصة لها، لا أنكر أن ذلك بدافع الحب؛ فهي بالنهاية ضحية لتربية وعادات وتقاليد، ولكن ذلك ليس مبررًا لانتهاكنا بالتأكيد.

ابتسمت أمي ابتسامة جانبية ساخرة، ربما تذكرت يوم قالت لها عن زواجها من سيد الجندي أنا لا أريد إلا مصلحتك، قبل أن تقول ود:

– نعرف ذلك جيدًا يا جدتي، ونحن نحبك كثيرًا أيضًا، ولكنك خدعتنا.

قالت جدتي:

– أنتم من اضطررتماني لذلك، كان لا بد أن تختنا وآمال طاوعتكما بدلًا من أن تُعقلكما.

– لم يكن لا بد، ولكن حصل خير يا أمي.

قالت أمي ذلك، وقبلت رأس جدتي ففعلنا أنا وود مثلها قبلنا رأسها فعانقتنا جدتي كانت لحظة دافئة ومليئة بالحب، جعلتنا نضمد جرحنا الغائر وهربنا كعادتنا ود في الرسم وأنا في القراءة.

*****

2005

وأنا أبتاع الفطار في الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة، كان اليوم دوري حيث تبتاع ود يوم وأنا يوم..

أخرّني عم هلال، فتفقدت عناوين الجرائد التي يضع فيها (الطعمية) حتى يمر الوقت، كانت أمامي، رأيت عنوان عن افتتاح حديقة الأزهر "جنة مصر"، كانت الجريدة بتاريخ خمسة شهور مضت، أكملت الموضوع الذي يحكي عن مساحتها الكبيرة، والطبيعة الخلابة بها من مياه ومساحات خضراء، فتشوقت لزيارتها. منذ ولدت لم أذهب للقاهرة المدينة العتيقة، ملهمة الكُتاب والشعراء التي أراها في التلفاز، وأدرس عن معالمها وأقرأ عن أزقتها التي تحكي عن ثمانية عصور وثماني حضارات، لم أتخط عتبة قريتي من الأساس، حتى رحلات المدرسة تمنعنا منها أمي وجدتي بدافع الخوف علينا، ملأتني رغبة كبيرة في زيارة القاهرة عامة، وحديقة الأزهر خاصة، ولكن كيف؟!

خطرت لي فكرة جيدة، أن أذهب مع أستاذ جرجس إذا لم يمانع وأجعله يقنع أمي.

عندما ذهبت للمدرسة في الفاصل بين الحصص -الفسحة- اتجهت لمدرستي الابتدائية التي كانت بجوار مدرستي الإعدادية، سألت عن الأستاذ جرجس حتى وجدته يسير في أحد الطرقات ركضت خلفه وأنا أقول:

- أستاذ جرجس؟

التفت وراءه فوقف، وقال مبتسمًا:

- أهلًا صبا، كيف حالك؟ وكيف الصف الثاني الإعدادي؟

- جيد.

- يصح ذلك؟! لم أرك إلا بالصدفة، أم لا بد أن أجلب لك كتابًا كذي قبل حتى أراكِ.

- في الحقيقة هذا اللقاء مدبر وليس صدفة.

قلت ذلك وتلعثمت فقال:

- تريدين شيئًا؟

- أنا محرجة منك، أريد خدمة لا أعرف إذا كانت باستطاعتك أم لا.

- إذًا قولي ما هي وأنا أحدد.

- أريد زيارة القاهرة وحديقة الأزهر التي افتتحت منذ أشهر، ولا تقلق سأذهب معك فقط وأنا سآخذ هذه الجولة بنفسي.

فرد تنورتي وأنا أواصل:

- لم أعد صغيرة كما ترى.

- بسيطة تلك.

قلت بابتسامة واسعة:

- تعني أنك موافق؟

- أجل.

- ولكن هناك مشكلة صغيرة.

قال مداعبًا:

- كثُرت طلباتك يا ست صبا.

- أعرف ولن أزعجك مرة أخرى.

- إذًا ما هي المشكلة؟

- أن تتحدث مع أمي وتجعلها توافق أن أذهب، وسأحفظ لك هذا الجميل طوال حياتي(أردفت مداعبة) سأدعو لك في الحرم.

ضحك قائلًا:

- وأنا سأدعو الله أن يباركك ببركة العذراء أم النور.

*****

عدت لود موضع ما تركتها في فناء المدرسة، وجدتها تنتظرني ومعها قلم ودفتر قالت:

- ماذا فعلتِ؟

قلت سعيدة:

- وافق، باقي أمك وجدتك.

- بإذن الله ستوافقان.

- ما شأن القلم والدفتر؟

- سأعترف لحامد بحبي، سئمت نظراتنا البلهاء وتحليلاتها.

- ولكن هذه الخطوة لا بد أن تكون منه!

- من الذي قال ذلك؟

- لا أعرف وجدنا الدنيا هكذا تحكمها قوانين بديهية.

– هذه القوانين من اخترعوها في القبور الآن ربما تحولوا لبترول واحترقوا.

كانت ود تعكف كثيرًا على قناة "ناشيونال جيوجرافيك"، وكونت خلفية ثقافية لا بأس بها في هذا السن، أعجبني قولها ولكني قلت مكابرة:

– ود، هذه القوانين لم تخترع من قِبل أحد إنها الفطرة، الفتاة تكون حيية والولد جريء، الولد يعترف والفتاة تخجل!

– أنا لن أقيد سعادتي بهذه التُّراهات. هيا أخبريني ماذا أكتب كادت الفسحة أن تنتهي.

– ولما لا تكتبين أنتِ؟ أنا لم أؤيد هذه الفكرة.

– أنت تتقنين فن الكتابة لاحظت ذلك من موضوعات تعبيرك.

– لن أقول شيئًا.

– على راحتك، سأكتب أنا وأصعد قبل الجميع، أضع الجواب في الدُّرج.

كتبت باختصار شديد "حامد أنا ود وأحبك" وصعدت وضعته في درج دكته

عندما عادت لي كانت الفسحة قد انتهت وصعدنا، جلسنا في دكتنا نراقب حامد ورد فعله عندما يقرأ الجواب.

عندما جلس لاحظ الورقة مسكها قرأها فوشوش صديقه الذي بجواره في أذنه ونظرا الاثنان لنا، قبل أن تنتهي الحصة كان جميع الولاد قد

عرفوا أن ود تحب حامد وأرسلت له جوابًا، أخبر صديق حامد أحدهم وهكذا تناقل الخبر بينهم.

ضايق ود ذلك كثيرًا وجعلها تشتعل غضبًا فكتبت في دفترها سبة "***** يا حامد" وكتبت تلك السُبة مرة أخرى "و***** من يقرأ"

نزعت الورقة وانطلقت من مكانها وأعطته تلك الورقة أمام الجميع بعدما خرج المعلم، خطفها أحدهم منه وخطفها آخر وتناقلوها كما تناقلوا الخبر فوصلت السبة لهم جميعًا.

ضحكوا ولكن بالتأكيد شعروا بالإهانة بداخلهم، في أكثر الأحيان يكون للفضول عواقب، وكان عاقبتهم السباب من فتاة وذلك مهينًا جدًا بالنسبة لهم.

أضحك كلما تذكرت ذلك رغم أنه في ذلك اليوم كُسر قلب ود وانكسر قلبي حزنًا عليها، ولكنها لم تكن ضعيفة ولم تسمح لشيء أن ينال منها دون أن تنال منه.

*****

أقنع أستاذ جرجس أمي، ولكنه فشل في إقناع جدتي، كانت تخشى من سيرة القطارات والسفر بها، بعد حادثة انقلاب قطار الصعيد في مدينة العياط حين مات وتفحم أكثر من ألف مسافر، فتولينا نحن جميعًا مهمة إقناعها، قالت جدتي موجهة حديثها لأمي بعدما دخلت في موضوع آخر:

– كيف تأمنين عليها مع رجل غريب؟ ومسيحي أيضًا .. لربما يأخذها الكنيسة وينصِّرها.

ضحكنا أنا وود بينما قالت أمي:

- هو مُدرسها ويحبها كابنته.

- أنت طيبة يا آمال، تظنين كل الناس مثلك، ابنتك لم تعد صغيرة لربما يحبها حبًا من نوع آخر.

تدخلت ود قائلة:

- أقسم لك يا جدتي، أنه رجل يشهد الجميع بأخلاقه.

وقلت أنا:

- إنه يحبني؛ لأنني كنت نجيبة معه والمعلم يحب تلميذه النجيب كما يحب الرجل صديقه.

لم تقتنع ولكنها في النهاية بعد عناء طويل في إقناعها رضخت لمطلبنا اتقاءً لحديثنا المتواصل؛ لأنها لا تحب الجدال والسفسطة، أردت أن أخفف عن ود فقلت لها أن تأتي معي القاهرة نتونس ببعضنا، ولكنها رفضت وقالت أنها لم تكن لها رغبة، كانت تعرف أن جدتي لن توافق على أخذنا نحن الاثنان لو أطبقت السماء على الأرض.

*****

يوم الأربعاء، السابعة صباحًا، كنت في بيتي جاهزة أنتظر أستاذ جرجس، أرتدي فستان العيد الماضي، لونه بني وبه ورود كشمير، وطرحة كشمير، وحقيبة سوداء وحذاء أسود، لم أكن أنيقة كعادة الريفيين في هذا الوقت، سمعت طرقات على الباب فركضت لأفتحه، أوقفتني جدتي وفتحت هي وجدته أستاذ جرجس كالمتوقع، فقالت:

– اسمع يا أستاذ، سألت عليك كثيرًا من الناس وشكروا بك، لا أريد أن أندم على موافقتي، المغرب صبا تكون هنا، نقودها معها فلن تكلفك شيئًا.

كانت تحدثه كأنه مجبر على أخذي معه، لا أنه يُسدي لي معروفًا فأومأت له برأسي من خلفها، وأنا أضع يدي على قلبي بمعنى تحملها من أجلي فقال:

– ستكون هنا في الموعد إن شاء الله.

ودعتُ جدتي وأمي وود بالعناق والقُبل، قالت جدتي:

– لا إله إلا الله.

فرددت:

– محمد رسول الله.

وبالمثل فعلت أمي، لأول مرة سأغيب عنهن وأذهب لمدينة بعيدة، ذهبت مع أستاذ جرجس وأنا أشتاق للقاهرة شوق النبات الذابل لماء المطر.

كان اتفاق أستاذ جرجس مع أمي أنه فقط سيأخذني معه الورشة أرى الطرقات والمحال التجارية والناس والحياة في العاصمة، وكان اتفاقي معه أنه سيتركني في محطة القطار وأعود له في موعد محدد. وأنا في القطار جوار النافذة كنت أرى مربعات الأراضي الزراعية كالبساط جوار النيل يحفها النخيل وأشجار التوت، جميل منظر النيل وله هيبة، كنت أردد في عقلي وأنا أراه مقطع أغنية من فيلم أغنية على الممر "وتعيشي يا ضحكة مصر وتعيش يا نيل يا طيب وتعيش يا نسيم العصر وتعيش يا قمر المغرب وتعيش يا شجر التوت"، كنت أحب هذا الفيلم الذي كان أبطاله يواجهون هزيمتهم

وآلامهم بالغناء.

لا أعلم لما شعرت بالحزن، ربما لأن ود ليست معي، من جديد تابعت المنظر من نافذة القطار بتركيزٍ، كانت أعمدة الإنارة المنطفئة تمر سريعًا، والشمس ما زالت حانية، عندما نزلنا في محطة رمسيس قلت:

- سأذهب إلى حديقة الأزهر، وربما القلعة، ومسجد الرفاعي، والسلطان حسن فهم قريبين منها، وسآتي هنا في نفس المكان الرابعة عصرًا، سأسأل لا تقلق عليَّ.

ضحك قائلًا:

- تتحدثين بثقة وكأن القاهرة في مساحة بلدتك، ربما تتوهين وربما يضايقك أحدهم، القاهرة كبيرة جدًا ومليئة بالصخب.

- إذًا ما العمل؟

- سأجعل ابنة أخي تذهب معك، هل عندك مشكلة في ذلك؟

- بالتأكيد لا.

- إذًا هيا معي، إلى حي الجمالية.

ركبنا حافلة تعج بالناس وقفنا في الطرقة، أربكني الصخب والفوضى، الزحام حجب عني رؤية الشوارع، لكننا نزلنا واستمتعت بكلِ شيءٍ أراه؛ الشوارع القديمة، والمحال العتيقة، وملابس الناس الضيقة والقصيرة لم تكن في بلدتنا هكذا، والمباني الفخمة كل شيء على الطبيعة كان أجمل من التلفاز. أوقفني أستاذ جرجس قال:

- ها هي الورشة.

رأيت صالح بالداخل ينشر قطعة من الخشب، قفز قلبي من موضعه شعرت أنه سيفتك بأضلعي وينخلع ابتلعت ريقي في محاولة للسيطرة على انفعالي، لم أكن أتوقع أن أراه، رآنا شقيق أستاذ جرجس استشفيت ذلك من الشبه الكبير بينهما، فقال:

- أهلًا جرجس.

أشار نحوي وقال:

- من هذه؟

رفع صالح بصره فرآني، ابتسم رغم أنني منذ عامين لم أكن بالحجاب، والحجاب غير شكلي قليلًا إلا إنه ابتسم؛ أي عرفني فابتسمت أنا أيضًا لا إراديًا، قال أستاذ جرجس:

- إنها صبا تلميذتي، تلميذة ذكية وطموحة، أرادت أن ترى القاهرة فجاءت معي، تريد زيارة حديقة الأزهر، أين مادلين؟

- اليوم زفاف صديقتها وهي معها منذ أمس.

أدخلني أستاذ جرجس أشار على أحد المقاعد، وقال:

- اجلسين سأرى حلًا ربما أصحبك أنا، ولكن ستنتظري ساعة على الأقل أراجع فيها الحسابات.

مسح صالح جبهته وهو يقول:

- ولما ساعة؟ أنا سأتولى هذا الأمر.

أعجب هذا الاقتراح أستاذ جرجس، كان يرى أنني ما زلت صغيرة، وجولة مع ابنه الذي يكبرني ربما بعقد لا تضر فقال:

- تكون صنعت لي معروفًا، إنها فتاة مهذبة ولن تضايقك.

وقال عمه مداعبًا:

- إنها فرصتك؛ تريد أن تهرب من العمل كعادتك يا صالح.

لم أصدق، أمنيتي ستتحقق بسهولة هكذا؟! منذ عام كنت أحلم بنزهة معه في باريس، ولكنها ستتحقق في القاهرة فلن يختلف الأمر إطلاقًا.

غاب صالح ربع ساعة، بدل فيهم ملابسه وأخذ حمامًا وعاد وسيمًا كعادته، وقفت وسرت بجانبه وأنا أكاد أذوب من الخجل، قال أستاذ جرجس:

- لن أوصيك عليها.

- لا تقلق.

قالها صالح ملوحًا له بيده، أخذنا سيارة لحديقة الأزهر، طوال الطريق لم يتكلم أحدنا عندما نزلنا أردت أن أدفع أجرتها، فنظر لي صالح نظرة تعني لا تكوني بلهاء ودفع هو.

*****

دخلنا الحديقة، شعرت إنني دخلت الجنة، تلفت حولي بانبهار شديد وأنا أرى المساحات الخضراء، والنوافير، وأحواض المياه، والأشجار العملاقة، والزهور الجميلة، كان صالح أيضًا يدور ببصره يراها فقلت بعد طول صمت ونحن نسير:

- إنها بالغة الجمال.

- أجل، لأول مرة أزورها أنا أيضًا، لا يستهويني جو الحدائق.

- وماذا تحب؟

- أحب السباحة، أحب لعب الكرة، أحب الملاهي، أحب ألعاب الفيديو، أحب الفتيات الجميلات.

صمت قليلًا وواصل: مثلك.

شعرت بالخجل فقلت:

- ما علاقة الفتيات الجميلات بالهوايات.

- لا توجد علاقة، وأنتِ ماذا تحبين؟

- أحب ود، وأمي، وجدتي، والقراءة، والنوم تحت النجوم، وأستاذ جرجس. ربما إن كنت أعيش في مدينة مثلك كان سيكون لي اهتمامات أخرى، وأعرف أشخاصًا آخرين لأحبهم وهوايات أخرى.

أشرت له على أحد المقاعد، وقلت:

- يمكنك أن تجلس هنا تنتظرني سآخذ جولة وأعود لك، بما إنك لا تستهويك الحدائق.

- لا بأس في أن أجرب شيئًا جديدًا.

أخذنا جولة وبعد سيرٍ طويل استظلينا تحت شجرة فقال:

- جئت البلد مرات كثيرة ولم أرك، رغم أني كنت أطمح كثيرًا في رؤيتك.

- منذ العام الماضي توقف أبوك عن جلب كتاب فلاش، قال إني كبرت على ذلك ولا بد أن أقرأ أشياء تناسب سني وعقلي، ولكن لا أخفيك سرًا ما زلت أحب تلك الكتب وأقرأ فيهم.

- جميل أن يكون لك شغف نحو شيء ما.

- القراءة شغفي الوحيد.. حتى أنني أقرأ الجرائد التي أجلب فيها (الطعمية).

- ألم تجربي الكتابة؟

ضحكت قبل أن أستطرد:

- مرة قرأت في صفحة هواة التعارف في جريدة قديمة أحببت أن أراسل أحدهم، وكتبت له خطابًا لكني لم أرسله.

- لما؟

- لأنه ربما مات أو تغيرت اهتماماته، كنت أحكي له أشياء بلهاء، وأسأله عن أمنيته وآماله، وكيف يقضي يومه وهكذا.

صمتُ قليلًا وواصلت:

- أتعرف تمنيت أن أضع صورتي مع هؤلاء البائسين بتلك النبذة

"الاسم: صبا سيد

العمر: 13

الهواية: القراءة

الأمنية: أن يعم السلام العالم

وعنواني على أمل أن يراسلني أحد

- أعرف هؤلاء الناس ولكن هناك شيئًا لا أفهمه، الذين يضعون صورهم ونبذة عنهم كما قلتِ، بعضهم هواياته جمع الطوابع وجمع ريش الدجاج.

ضحك واسترسل:

- غريبة جدًا تلك الهوايات.

- أنا أيضًا استغربها خاصة جمع ريش الدجاج.

- ستكون هواية منطقية إن كانوا من قبائل الهنود الحمر الذين يطوقون رؤوسهم بالريش.

ضحكنا وأخذنا جولة أخرى أحببت فيها الزهور كثيرًا، وابتعت لود عقد ولأمي خاتم ولجدتي مسبحة، مر الوقت دون أن نشعر حتى سمعت أذان العصر فقلت:

- لا بد أن نعود لأبيك الآن، جدتي قالت المغرب أكون في البيت.

عدنا لأستاذ جرجس الذي قال:

- كيف كانت الحديقة؟

أخذني الحماس فصرت أوصف له كم هي جميلة، وزهورها رائعة، وكيف أحواض المياه والنوافير محببين للنفس وعليه أن يزورها.

فضحكوا جميعًا على حماسي وطريقتي في الوصف..

ودعت صالح وعمه، وأخذني أستاذ جرجس لنعود ونحن في الطريق كنت أجد بعض المنازل تعلق على شرفتها أصص نباتات، فقلت له إنني أحببت النباتات وأحب أن اشتري أصيصًا مثل هذه فقال:

- إن صادفنا في الطريق بائعين سنشتري.

وصلنا محطة القطار، ولم نصادف فسألت أحد المارة إن كان قريبًا من هنا محل يبيع نباتات فدلنا، اشتريت فلة وكنت سعيدة بها كثيرًا طوال

الطريق وأنا أحتضن الأصيص البلاستيكي، حتى وأنا نائمة في القطار كنت أحتضنها.

عدت للبيت في المساء بعد المغرب، كانت جدتي غاضبة مني ولكني راضيتها بالمسبحة، وأعطيت لأمي الخاتم الذي أعلم أنها لن ترتديه، وود لم تكن في الصالة لاستقبالي دخلت حجرتنا وجدتها ومعها قطة صغيرة صفراء وبها قطع بيضاء، التفتت وجدتني ومعي أصيص الفل فجاءت لتعانقني، أنزلت الأصيص عانقتها وأخرجت عقدها من الحقيبة، وقلت وأنا أعطيه لها:

- ماذا فعلت اليوم بدوني؟

أخذته تتفقده وهي تقول:

- لم أشعر بغيابك بفضل هذه القطة، وجدتها أمام الدار يبدو أن أحدهم أخذها من أمها، أسميتها خوخة لائق عليها أليس كذلك؟.

نظرت للقطة بشفقة وقلت:

- تبدو صغيرة جدًا وما زالت ترضع.

- شربتها لبن. ماذا فعلت اليوم؟

- لن تصدقي ماذا حدث، وجدت صالح وهو من أخذني للحديقة حتى لا أتيه وتحدثنا كثيرًا.

قطبت ود جبينها وقالت:

- صالح مرة أخرى؟!

تجاهلت اعتراضها وقلت:

- لم يخطر لي أن أراه.

لم تولني اهتمامًا وراحت تداعب القطة، هذه هي طريقتها في رفض الأمور، لا تجادل ولا تناقش تقول رأيها فقط، كجدتي تمامًا.

*****

سبتمبر 2005

أصبحنا في الصف الثالث الإعدادي، الكثير أصبح يحب ود بعد موقعة الجواب العام الماضي، ولكنها كانت تكن لهم جميعًا مشاعر كراهية، وما زالت تحب حامد، وتتظاهر بأنها تكرهه، ألمحها أحيانًا وهي تنظر له، هو أيضًا يحبها ولكنه تصرف بطيش حين أخبر صديقه المقرب وأفسد كل شيء، حاول مرتين أن يعتذر لها ولكنها كانت تصده، وتقول جادة "سأخبر المعلم" فيلزم نفسه.

أعتقد أن ود كانت تستمتع بتلك الحالة، أو أصبحت تعاني متلازمة الحب العذري، كجميل بثينة، وكثير عزة، ومجنون ليلى جميعم كانوا يعرفون أن العرب لا تعطي فتياتهم لمن يقول فيهن شعرًا، ومع ذلك تغزلوا بهن وهم يعلمون جيدًا أنهم بذلك سيحرمون منهن للأبد، ولكنهم أحبوا معاناة الحب عن الحب نفسه.

ونحن نائمتان تحت النجوم كعادتنا قلت لود مداعبة:

- أرى كثيرًا من الصبية في الفصل ينظرون لكِ بهيام وحب. ماذا فعلت بهم؟

- هذا لا يشرفني إنهم كالخراف الضالة

- أما زلت تحبين حامد؟

- هذا أكبر خروف بهم.

- أعرف أن المشاعر لا نملكها، ولكنك أخطأت حين فكرتِ أن تحبين أحد في مثل عمرك، كان لا بد أن تفكري، الفتاة تتزوج قبل الشاب، الشاب مشواره طويل يتخرج ثم يذهب للخدمة العسكرية ثم يعمل حتى يدبر المال الكافي لزواجه، حينها تكون الفتاة التي في مثل عمره معها طفلين على أقل تقدير.

- أخطئ حين أحب من في مثل عمري، ولكني لا أخطئ حين أحب من يُدين بدينٍ غير ديني أليس كذلك؟

أجمتني لم أعرف بماذا أرد فقلت بعد تفكير:

- إن كنت تقصدين صالح؛ فأنا لا أحبه أنت تتوهمين ذلك.

- حقًا؟ منذ أشهر وأنت تذكرين يوم ذهبت للقاهرة.

- لأنه كان يوما جميلًا

- أنا أخاف عليك يا صبا.

- لا تخافي.. أنا لست بلهاء.

جاءت خوخة تموء وتتمسح في ود التي أخذتها ووضعتها فوق بطنها وراحت تمسد فرائها.

*****

في يوم ما بعد تناولنا العشاء قالت جدتي لنا جميعًا:

- اليوم قبضت الجمعية.

كانت جدتي تنتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر منذ أعوام؛ لتذهب إلى الحج تزور قبر النبي وترى الكعبة، تلك كل أمانيها في الحياة، كنت أسمعها كثيرًا وهي تدندن "ميتى أزورك يا نبي ياللي بلادك بعيدة"، وتابعت:

- سأجلب لكل واحدة منكن حلقًا ذهبيًا.

- لم يكن له داعي يا أمي.

قالت أمي بينما ود عانقت جدتي، واكتفيت أنا بقول:

- شكرًا يا جدتي.

نظرت لها ود قائلة بسرور:

- ستذهبين للحج أخيرًا؟

ضمتها جدتي وهي تقول:

- سأبدأ في الإجراءات، ربما أرى حسين وإبراهيم هناك، أليس كذلك؟

قالت ود تهاودها: ربما.

- لا أعلم لما قطعا أخبارهما عني؟ ربما تزوجا من نساء حرباوات أكلا عقلهما وعلموهن القسوة.

وتابعت: من منكما يا حلوين ستكتب خطابًا لهما تبلغهما بذهابي للحج ربما يأتيان ليرياني؟

رفعت يدي قائلة:

- أنا خطي حلو سأكتبه.

تظن جدتي أن السعودية صغيرة كقريتها وتستطع ببسهولة أن تجد ابنيها فيها، ذكرتني بنفسي عندما ذهبت للقاهرة وكنت أريد أن أتجول فيها وحدي، لا بأس ستذهب وسترى.

جلبت جدتي القلم والدفتر وهي سعيدة وراحت تملي عليّ ما سأكتبه، كنا سعداء لأجلها ولكنها سعادة مختلطة بالشفقة، ماذا ستفعل عندما تذهب ولم تجدهما كما تتوقع؟! ربما حان الوقت لتصدّق أنهما ماتا وأنها حرمت منهما للأبد، يا لقساوة الموت حين يأخذ منا عزيزًا، يظل فقده جُرحٍ لن يبرأ أبدًا.

*****

في اليوم التالي، بينما كانت أمي تؤدي فريضة العصر، وتكنس جدتي خلف الدار، وود تشاهد التلفاز وأنا أراجع حفظ سورة الأنبياء؛ لتسميعها غدًا في (الكُتاب)، طرق أحدهم الباب فذهبت ود لتفتحه، وجدت طفلًا معه صندوق هدايا أعطاه لها، وقال:

- هذا الصندوق لصبا.

لم يقل أكثر من ذلك، أخذته ود وجلبته لي في حجرتنا والفضول يملؤها لمعرفة ما في داخله، كنت فوق السرير فقالت ود:

- هذا الصندوق لكِ.

رفعت بصري فقلت باستغراب:

- ما هذا؟ ومن جلبه؟!

- طفل لا أعرفه أعطاه لي وقال أنه لكِ.. هيا افتحيه.

أعطته لي وجلست جواري لترى ما بداخله، فتحته بخوف وفضول، وجدت مظروفًا وخمسة كتب من سلسلة فلاش، فتحت المظروف وجدت خطابًا، كان محتواه سطرًا ونصف:

"كل شيء نحبه يناسب سننا وعقلنا دائمًا ... يمكنك أن تراسليني وتحكي لي أي شيء أو تسأليني عن أي شيء، هذا عرض خاص لكِ"

صديقك: جامع ريش الدجاج

ضحكت بسعادة.. فقالت ود:

- لم أفهم شيئًا من صديقك جامع ريش الدجاج؟

تقلصت ابتسامتي وقلت:

- إنه صالح يا ود.

أومأت ود صامتة، ثم قالت:

- أنا متوهمة إنك تحبينه أليس كذلك؟

- لربما يُسلم.

- ولربما لا.

- إذًا فلنترك الأمر للقدر ونسعد الآن.

- هذه السعادة ستتحول نارًا لتحرقك فيما بعد، فاحمدي هذه النيران من الآن.

- ود أنا حقًا لم أره سوى ثلاث مرات على فترات متباعدة، ولكنه احتل كياني. تظنين الأمر سهلًا ولكنه أصعب من ما تتخيلين.

دخلت أمي في تلك اللحظة فقالت وهي تشير للصندوق:

- ما هذا؟

لم أرد، فقالت ود:

- أتاها هدية من مجهول، والمجهول يخيف أليس كذلك يا أمي؟

- كيف من مجهول؟

ردت ود:

- شخص موقع باسم جامع ريش الدجاج.

لم تقتنع أمي ولكنها تغاضت عن ذلك وقالت:

- جدتكما أن رأته لن تسكت.

فأخذته ووضعته فوق الخزانة المتهالكة.

*****

في المساء، خرجت لأروي الزرعة وجدت الأصيص مقلوبًا على الدَّرج، شهقت ووجدت خوخة في الأعلى تنظر لي، علمت أنها من قلبته فقلت بصوت مرتفع:

- أنتِ يا ست ود.

جاءت تقول:

- ما الأمر؟

أشرت لها على الأصيص قائلة:

- انظري ماذا فعلت خوخة!

- ومن أين علمت أنها هي؟

- ومن غيرها؟ إنها في الأعلى.

- ربما المعزة.

- لا، إنها خوخة .. أعيدي لي الفلة كما كانت الآن.

- حسنًا، ولكن لا ترفعي صوتك عليّ.

- سأرفعه ما دمتِ غبية.

- لست غبية، ما ذنبي إن كانت خوخة من فعلتها هل أنا من حرضتها مثلًا؟

لكزتها في كتفها قائلة بغيظ:

- حسنًا كفى.

ردتها ود وتشابكنا بالأيدي فجاءت أمي خلصّت بيننا، كنت لا أشعر بالاستقرار وخائفة من كلام ود عن مستقبل حبي لصالح؛ لذا لم أتمالك نفسي ونفد ثباتي الانفعالي.

دخلت عند جدتي حجرتها، وجدتها جالسة على مصليتها تتمتم بأذكار بعدما فرغت من صلاتها، جلست جوارها وألقيت برأسي في حجرها؛ كنت بحاجة للاطمئنان ظلت تمسح على شعري، وهي تواصل تمتمة استطعت أن أفسرها كانت تقول "اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا النبي" شعرت بالسكينة والاطمئنان.

دخلت أمي جلست جوارنا فقالت جدتي:

- أين ود؟.

ردت أمي: تشاهد التلفاز.

فنادت عليها جاءت ود تقول:

- نعم يا جدتي.

- اجلسي.

كنا متخاصمين، فجلست بعيدًا عني دون أن تنظر لي، فقالت جدتي موجهة حديثها لأمي:

- قريبا سأذهب للحج، سأقلق عليكن وحدكن.

- لا تقلقي بناتي كالرجال.

- عبد العزيز كرر طلبه مرة أخرى.

- وردي كالمرة الأولى.

وجهت حديثها لي أنا وود:

- إن أمكما تزوجت هل ذلك يغضبكما؟

قلت:

- إن كان عبد العزيز المحامي فذلك لن يغضبني.

قالت ود:

- وأنا كذلك.

فقالت جدتي:

- ها هما موافقتان. ما حجتك إذًا؟

- لن أترك بناتي أو أضيق عليهما سأعيش لهما وحسب.

- هذا كلام فارغ، لا تجبريني أن أغصبك على هذه الزيجة.

- لم أعد صغيرة على الإجبار يا أمي، لن أطاوعك في شيء ضد مصلحة بناتي.

أعرف أن أمي تحبه فتدخلت قائلة:

- إذا كنتِ ترفضين لأجلنا فلن يرضينا ذلك، تزوجيه يا أمي، نحن نحب أن نراك سعيدة.

- يبدو أن تجربة البغل سيد الجندي عقدتك، ولكن صراحة معك حق.

لم تستطع أمي أن تمنع ضحكتها ولكنها قالت بجدية:

- لا يصح أن تتحدثي عن أبيك بهذه الطريقة.

- سأذهب إلى السجل المدني وأقدم طلب بطلان أبوة، حتى لا تقولين لي ذلك أنت أو صبا مرة أخرى، وسأعطيه اسم (شرشبيل) لائق عليه أليس كذلك؟

ضحكنا فتجاهلت جدتي كل ذلك، وقالت:

- سأخبره أنك موافقة.. حسنًا؟

قلت:

- أجل موافقة.

لم ترد أمي، نهضت من جلستها وغادرت الغرفة.

فقالت جدتي:

- لا أعلم لما أصبحت عنيدة هكذا؟! الغريب في الأمر أنها تحبه.

*****

صعدت للسطح دون ود، فوجدتها قد سبقتني، كانت نائمة تأكل علكة وتوّصل ما بين النجوم بأصابعها بخطوطٍ وهمية، علمت بحضوري ولكنها تجاهلت وجودي وواصلت ما تفعل، نمت جوارها دون أن أتكلم فقالت:

- قبلته.

- ما هو؟

- اعتذارك.

- شكرًا.

التزمت الجدية وقالت:

- تريدين لأمك أن تتزوج من عبد العزيز حقًا؟

- الأمر مربك قليلًا ولكني أريد سعادتها.

- وأنا أيضًا ولكني مترددة؛ أخاف أن يصبح وحشًا كاسرًا كشرشبيل.

- ماله ولنا، ثم إنه رجل يشهد الجميع بحسن خلقه.

- ولما لم توافق أمك طالما أنها تحبه؟

- لا أعلم ولكن ربما أرادت أن تشعر بآدميتها مرة، حتى ولو على حساب نفسها، أرادت أن تشعر أن لها إرادة وقرار.

- حفظت (للكُتاب؟)

- أجل وأنتِ؟

- أشعر أنني حفظت.

- مستواكِ تراجع كثيرًا يا ود، التلفاز يأخذ كل وقتك، لقد سبقتك بجزئين وذلك يحزنني، غدًا سأتم حفظ ومراجعة أربعة عشر جزءًا وأنت ما زلت في الثاني عشر تتأرجحين.

- ما ذنبي إن كنت أحب (الكارتون) والسينما.

- وأنا أيضًا أحبهما ولكنك أهملتِ كل شيء سواهما حتى الرسم.

- لن أهمل الرسم عمري سأعود له في الإجازة، الرسم يحتاج مزاجًا ليس عندي وسط كل هذه الضغوطات، دروس .. ومدرسة .. وكُتاب .. وطبخ أحيانًا.. السينما حبها سهل الممارسة، أما الرسم فحبه يستنفذ الطاقة.

*****

في اليوم التالي، في الكُتاب، سمّعتُ ما حفظت وأثنى عليّ شيخي وقال:

- لن آخذ منك حق هذا الشهر مكافأة لك.

جاء دور ود كانت تسمع في سورة النمل، وتتوقف كثيرًا حتى يقول لها الشيخ بداية الآية فتكمل بعدها، لم يعجب حفظها الشيخ، شعر بتراجع مستواها كانت تفوقني من قبل، أراد أن يؤدبها فعنفها بالكلام ثم أخذ العصا من جواره، وقال:

- افتحي يدك.. هذا لم يكن حفظًا.

قالت:

- سأعيده.

- هذا لا شك فيه، افتحي يدك!

تباطأت فضربها على ذراعها يتعجلها قائلًا بنبرة حادة:

- هيا افتحي يدك!

فتحت ود يدها ضربها خمسة عصيان أوجعوها ولكنها لم تبك، كنت أتألم لها فوقفت عند الضربة الثالثة؛ حتى يتوقف الشيخ ونغادر، ولكنه توقف بعد الخامسة، وقفت ود بعدما أخذت دفترها ومصحفها وفكرت قليلًا قبل أن نغادر، ثم أخذت العصا من جواره وقذفتها من النافذة التي خلفه، وقفتُ مندهشة بينما سارت هي كأنها لم تفعل شيئًا فسبها الشيخ وقال:

- لا تأتيني مرة أخرى.

نظرت خلفها قائلة:

- هكذا أفضل، سأتفرغ للتلفاز والدراسة.

رد الشيخ: لعنك الله، تفضلين المجون والعلم الدنيوي على كلام الله، اغربي عن وجهي يا عديمة الحياء.

غادرت ود وركضت خلفها، وجدت وجهها يشوبه حمرة الغضب، ثم انفجرت ضاحكة وقالت بصوتٍ خشن تقلده:

- اغربي عن وجهي يا عديمة الحياء.

فقلت جادة: ود! ماذا بك؟ تأدبي.. إنه شيخك.

- لم أفعل شيئًا سوى أنني أخذت حقي، لا يحق له أن يضربني، لا أعلم لما فتحت يدي من الأساس، إذا أخبرت جدتي ستأتي لتهين كرامته فما فعلت كان خيرًا له.

*****

مرت أيام، وأحببت أن أكتب خطابًا لصالح، فتحت صفحة بيضاء وكتبت **"إلى صديقي جامع ريش الدجاج:**

في البداية أحب أن أشكرك على هديتك القيمة، ممتنة لك بعدد نجوم السماء، رغم أن خطابك كان مقتضبًا للغاية.

كيف حالك؟ أتمنى أن تكون على ما يرام، هادئ النفس ومطمئن القلب، تغشاك السكينة.

منذ أيام انقلبت زرعتي على الدَّرج، قلبتها "خوخة" قطة ود أختي، ولكني أصلحتها، ملأت الأصيص بطينة من خلف الدار، وقومت ساق الزرعة، ونزعت الأوراق التي فسدت ونقلتها مكانًا آخر أكثر أمانًا.

رعاية هذه الزرعة تغير مزاجي وتُحسنه، خاصةً عندما تزهر وأجلس أقرأ، أو أذاكر جوارها وتمتلئ أنفي برائحة الفل.. هذا جانب من الأشياء التي أحبها.

أما عن الأشياء التي تزعجني فهي القسوة؛ التي فرقت بين أمي وأبي، كنت أتمنى أن أعيش في بيتٍ يملؤه الحب وأشاهد مظاهر حبهما، ولكن أبي أفسد كل شيء بقسوته. لا بأس، لا بأس أمي وود وجدتي عوضوني عنه.

وأما عن الأشياء التي تحزنني "حكاية بائعة الكبريت" وأغنيتها التي تبكيني.

في الحقيقة أنا لا أعلم ما هذا الهُراء الذي أقوله، ولكن أحببت أن أرسل لك خطابًا كما أرى في الأفلام.

وبمناسبة الأفلام، أمس رأيت فيلم "البيضة والحجر" للمرة الثالثة على مدار عمري الصغير، أحبه؛ لأنه جعلني أفكر. الناس تحب الوهم؛ لأنه شماعة يعلقون عليها خيباتهم؛ لذا يصدقون من يبيع لهم الوهم حتى إن كان البائع خيالهم.

ربما تكون موهوم بشيءٍ ما وأنت لا تدري، أو تدري ولكنك تمثل على نفسك.

فانتبه جيدًا، الخيبة لا تعالج بالوهم، إنما بمواجهتها.

كن بخير.

"صديقتك صِبا"

فرغت من الكتابة وتذكرت أنه لم يعطني عنوانًا، ولم يذكر عنوانه في جوابه، ضحكت بمرارة على غبائي وغبائه، ثم فكرت أنه ما دام أرسل لي هذه الهدية فهذا يعني أنه قد يكون هنا في البلد، وأخذت قرارًا جريئًا أن أذهب له عند بيته بحجة أنني أريد أن أسلم على أستاذ جرجس، وإن وجدته أعطيه الجواب وإن لم أجده أسلم على أستاذ جرجس وأعود.

لا أعلم ماذا حل بي.؟!! لم أعهدني يومًا بهذه الجرأة!! ولكن على ما يبدو أن الحب يجعل المرء شجاعًا متهورًا.

خرجت من البيت دون أن أخبر أحد؛ حتى لا أضطر للكذب، وذهبت لبيت أستاذ جرجس فتح لي أحد أبنائه الآخرين فقلت له:

- أريد أن أسلم على أستاذ جرجس.

بعدما خطا الابن ثلاث خطوات للداخل قلت بصوت مرتفع في محاولة بائسة؛ لعل صالح يسمعني إن كان بالداخل ويخرج قبل أبيه:

- أخبره إنني صبا.

رغم أنه يعرف أنني صبا، وبالفعل نجحت الحيلة وخرج صالح سريعًا، فأعطيته الجواب قائلة:

- لم تكتب عنوانك .. يبدو أن جمع ريش الدجاج ألهاك.

وضعه في جيب بنطاله قائلًا:

- سأنتظرك غدًا التاسعة صباحًا عند المزرعة قبل أن أذهب للقاهرة.

قال ذلك ودخل، دقيقة وخرج أستاذ جرجس فقال:

- هل كان صالح يزعجك؟ إنني أعرفه يحب المشاكسة كثيرًا.

ضحكت قائلة:

- لا، إنه لطيف.

تحدثنا لبعض الوقت عن الدراسة، ودعاني للدخول ولكني قلت أمي ستغضب إن تأخرت، وعدت لبيتي استقبلتني جدتي قائلة:

- أين كنت؟

ازدرت ريقي وبدا عليّ الارتباك، وقلت:

- كنتُ.. كنت أسأل عن سماد للفلة.

- وأين هو؟

مددت شفتي السفلى وهززت كتفيّ ثم قلت:

- لم أجد.

- لا أصدقك يا صبا، تبدين مرتبكة كالحرامي الذي دخل عليه أهل الدار بعدما ظن نفسه في مأمنٍ، من الآن فصاعدًا لن تخرجي سوى بإذني أو بإذن أمك، لم تعدي صغيرة أصبحت بالغة.

*****

دخلت حجرتي كانت ود ترسم مسجد قبة الصخرة الذي كنا نعتقد أنه المسجد الأقصى، وقد سمعت حوار جدتي معي فقالت:

- عم جابر قال لك في الغيط أنه سيعطيكِ سماد "npk" يوم السبت، أي بعد غد، فلما ذهبت اليوم؟

- ماذا تريدين يا ود؟

- لا أريد شيئًا، ولكن انتبهي لنفسك أصبحت تكذبين.

جلست جوارها وقلت:

- أنا لا أحب أن نكون كذلك، أريد أن أحكِ لك عن مشاعري، وماذا أفعل وتفكري معي في حيل كما كنت تحكي لي عن حامد.

- أنت تلعبين بالنار يا صبا، وأنا لن أساعدك على ذلك.

نهضتُ وركلت ألوانها بقدمي، وقلت بضيق:

- حسنًا.

نظرت لي ود نظرة عتابٍ طويلة ولم تهاجمني كعادتها، شعرت بالندم فلممت الألوان وأعطيتها لها وأنا أقول ببالغ الحزن:

- أنا آسفة، لا أعلم لما أصبحت تصرفاتي هكذا معك.

أخذتهم ود وقالت: لا تتأسفي، احكي لي، سأسمعك.

- يريد أن أقابله غدًا عند المزرعة، وجدتك منعتني من الخروج سوى بإذنها.

- سندبر حيلة معًا ولكن بالليل تحت النجوم، والآن لا أريد أن أراك حتى أنهي ما أرسم.

طبعت قبلة على وجنتها وغادرت.

*****

أحضرت جدتي عبد العزيز للدار؛ لعله يقنع هو أمي بسيف الحياء والحب، تضايقت أمي من أسلوب جدتي فنادت عليّ أنا وود نجلس معهم، فقال عبد العزيز موجهًا كلامه لي أنا وود مبتسمًا:

- كيف حالكما؟

قلت:

- بخير والحمد لله.

فقال:

- الحمد لله، أنا أريد أن أطلب يد أمكما منكما ما رأيكما؟

قالت ود:

- ما رأيك أنت في شخصية شرشبيل؟

ضحكت، جميعهم لا يعرفون شرشبيل "الشخصية الشريرة في قصص السنافر"، وقلت:

- المهم رأي أمي.

فقالت أمي: هو يعرف رأيي.

قال جدتي:

- هي تخاف أن تضيق على صبا وود.

فقال:

- يشهد الله أنني سأعتبرهما بناتي.

قالت أمي:

- لم يكن الأمر كذلك فقط، أنت ما زلت أعزب وأنا لم أستطع أن ألد مرة أخرى، لم أكن لأمانع إذا كنت قد تزوجت من قبل ومعك أبناء، ولكن كيف ستقاوم رغبتك في الحصول على أبناء ولقب أب.

- أنا لم أرغب سوى في العيش معك يا آمال.

- سأشعر بالذنب.

- ولكني راضٍ، ثم إن صبا وود سيعوضاني عن الأبناء.

قالت ود:

- سنعيش نحن مع جدتي وهي تعيش معك.

شهقت أمي وقالت:

- هذا أكثر ما أخشاه، لن أتزوج، لن أترك أمي ولا بناتي.

- أمك لن تعيش لكِ طوال العمر.

قالت جدتي.

بينما اقترحت أنا موجهة كلامي لعبد العزيز:

- إذًا تعيش أنت معنا.

فقال هو: طوال النهار نكون عندكم، ونعود أنا وهي لبيتي في المساء.

قالت جدتي:

- هذا رأي سديد.

فقالت أمي:

- سأفكر.

قال:

- حسنًا، خذي وقتك، عندي استعداد لأنتظرك طوال العمر.

ابتسمت أمي من جملته الأخيرة، ما زالت تحبه ولكنها تحبنا أكثر.

*****

ونحن تحت النجوم قالت ود:

- أنتِ تحبين وأمك تحب، يومان وأجد جدتك تحب عم هلال بائع (الطعمية) هي الأخرى؛ فهو أرمل وعينيه زائغة، ربما يغازلها بكلمتين فتقع في غرامه.

ضحكنا فقلت:

- أما إن حدث!

قطعت ضحكها وقالت بجدية:

- ما أجمل حب عبد العزيز لأمك! ليته كان أبونا!!.

- هو نصيب، ولكن أحيانًا أفكر فأجد جدتك سبب معاناة أمك .. ونحن .. وعبد العزيز.

- ولكنها تحبنا!

- لا شك في ذلك، ولكنها تحب بطريقة خاطئة، دعينا من هذا الآن وأخبريني هل فكرت في حيلة تجعلني أخرج لمقابلة صالح دون ريبة من أحد؟

- هذه الأيام موعد الخربشة حول السمسم، سنقول إننا سنذهب لجني النجيلة والرجلة وأبو ركبة، تقابلين روميو في دقائق ونتجه نحو الأرض نجمع الحشائش ونعود. حسنًا؟

- حسنًا.

*****

في الصباح، خرجت معي ود لمقابلة صالح قبل أن نذهب للحقل، كنا نرتدي عباءات سوداء، لففنا حول المزرعة "استراحة الملك فاروق" حتى وجدناه يرتدي (كاب) يقيه من حرارة الشمس، ويعلق على كتفه حقيبة، رآنا فابتسم وقال:

- صباح الخير.

رددت:

- صباح النور، هذه ود أختي.

قال مداعبًا:

- ظننتها جدتك.

ضحكنا فقال:

- بما إن الجواب كان مقتضبًا ويبدو أن ذلك أثار غضبك؛ فقد كتبت بدلًا منه، وآمل أن لا يثير غضبك أيضًا.

أخرج جوابًا من جيبه وقال وهو يعطيه لي:

- هيا اذهبي قبل أن يراك أحد، تعرفين الناس هنا يتغذون على سيرة الآخرين.

أخذته وقلت بتلقائية قبل أن أغادر:

- لا إله إلا الله.

ليقول على البداهة "محمد رسول الله" كما تودعني أمي وجدتي فابتسم قائلًا:

- محمد رسول الله.

وأشار على الصليب في رسغة وهو يقول:

- لا تنسي ذلك.

أغمضت عيني كمن استفزه الغباء، وقلت:

- لقد نسيت.

ابتسم قائلًا:

- لا عليكِ .. وداعًا.

- وداعًا.

غادر واتجهت أنا وود التي كانت صامتة تمامًا للحقل، شرعت هي في جمع الحشائش من حول السمسم، تلك العملية تسمى الخربشة، وفتحت أنا الجواب دون صبر ودون أن أتخذ مكانًا وأنا واقفة في الحقل تحت حرارة الشمس التي لم أشعر بها؛ لأقرأ رسالته التي كان محتواها:

"عزيزتي صبا:

لستُ بقارئٍ نهم مثلك، ولا أتقن فن الكتابة مثلك؛ لذا كان جوابي مقتضبًا كما رأيتِ، حتى أنني كتبت تلك الكلمات القليلة في أكثر من ساعة.

لم يكن ما كتبته هراءً بل يدل على طهر قلبك، وطلاوة فكرك، وندرة شخصك. أنتِ جميلة قلبًا وقالبًا يا صبا، وكان من الصعب على شخصية هوائية صعبة المراس مثلي أنت تقع في الحب حقًا لولاك، الحب الذي يحكون عنه في الروايات والأفلام والأساطير القديمة.

هذا الحب جعلني أفكر في أمورٍ يراها الخالي قلبه من الحب تافهة، تمر ساعات وأنا أفكر في شكلك عندما تتعصبين كيف سيكون، وعندما تفرحين، وعندما تقرئين جواب مثل هذا،

ولكني خائف وعقلي وقلبي يتنازعان. حُلمنا بعيد، بعيد جدًا يا صبا تُرى كيف سينتهي بنا الحال؟!

عقلي يضع أسوأ السيناريوهات، سيكون علينا التصدي لمعارك كثيرة لن نقوى على مواجهتها، وعلى كلٍ الحب وحده لا يكفي تذكري هذا دائمًا، سيتحول إلى لعنة في وسط هذه المعارك؛ كالتفاحة التي أخرجت آدم من الجنة وشجرة التين التي أوهمت المسيح ولعنها فيبست.

لذا أرى أنه من الأفضل لنا أن نبتعد، أشعر أنني أحببتك منذ اللقاء الأول، كانت البداية سريعة وستكون النهاية سريعة أيضًا.

أنت صغيرة وجذابة، وما زالت الحياة في جُعبتها الكثير لكِ.

هذا الخطاب لم يأخذ الكثير من الوقت، بل كان ارتجاليًا لقد نزفت روحي على تلك الورقة دون تفكير.

شكرًا على منحك لي مشاعر لم أحصل عليها من قبل، سأربط على قلبي وأمضي..

لا تحزني كلانا يحب الآخر ولكنه يحب دينه أكثر."

انسابت دموعي وأنا أقرأ سمعت ود نهنهتي فتركت ما بيدها، وقالت:

- ما الأمر؟

*****

مرت أيام فكرت فيها أمي في زواجها من عبد العزيز كانت في حيرة شديدة، وكنا نشجعها على تلك الخطوة أنا وجدتي ولكنها كانت مترددة؛ لأنها لم تستطع الإنجاب وهو ما زال أعزب، وبالتأكيد كان يريد ذات يوم أن يصبح أب، قالت لها جدتي:

- إذا كان هو راضٍ فما شأنك.

وقلت أنا:

- لربما كنت عقيمًا وتزوجته من البداية ماذا كنت ستفعلين حينها؟ كنت ستتركيه؟ تزوجيه يا أمي لن تظلميه بل ستظلمين نفسك إذا لم توافقي.

اقتنعت أمي، هي في الأساس كانت تريد من يقنعها.

عندما علم بذلك عبد العزيز لم تسعه الدنيا وما فيها، ولكن عندما علمت أمه (أم طه) أنه يريد الزواج من أمي .. المطلقة .. منزوعة الرحم .. التي معها فتاتان بعمر الزواج حسب عادات قريتنا، ثارت ثورتها وجاءت لنا البيت طرقت الباب بقوة فتحت لها أمي، فقالت بصوت مرتفع:

- تريدين أن تتزوجي ابني الأعزب وأنت مطلقة ومعك فتاتان بطولك، وفوق كل ذلك لم تستطعي الإنجاب مرة أخرى؟ لم أكن أتصورك بهذه البجاحة.

ترك كل منا أنا وود وجدتي ما بيده وخرجنا لنرى ما الأمر، عندما سمعنا صوت الطرقات القوية على الباب، فقالت أمي بارتباك:

- هو الذي يريد ذلك.. لم .. لم أضربه على يده.

- لم تضربيه على يده ولكنك بالتأكيد لعبتي بعقله.

اندفعت جدتي نحو أمه، وقالت:

- ماذا تريدين يا أم طه؟

- ابتعدوا عن ابني.

ارتفع صوت جدتي، وقالت:

- هو ليس صغيرًا لتلعب ابنتي بعقله،عيب ما تقولين.

تجمع بعض الجيران على صوتهما، فقالت أم طه:

- لن أكرر ما أقول ابتعدوا عن ابني، إذا كان هو لا يعرف مصلحته فأنا أعرفها.

تدخلت ود وقالت:

- اذهبي يا أم طه وقولي لابنك هذا الكلام، رفضته أمي أكثر من مرة ولكنه لحوح ولا يمل، هيا اذهبي بكرامتك قبل أن أغلق الباب بوجهك العكر هذا.

تدخل بعض الجيران هناك من قال "صلوا على النبي"، ومن قال لود "احترمي الكبير"، بينما أمي لم تفعل شيئًا سوى البكاء، تركت الجميؤع وهرولت إلى حجرتها، نزعت حجابها وارتمت على السرير منهارة، دخلت خلفها وتركت جدتي وود يتشاكلان بأم طه، ربتُ على ظهرها وأنا أقول:

- إنها سيدة جاهلة.

لم ترد أمي بل زاد بكاها فقلت بغيظٍ شديد عن أم طه لما سببته لأمي من أذى نفسي:

- عقربة غبية.

- هي أم يا صبا.. أم، إن كنت موضعها ربما كنت أفعل مثلما فعلت.

قالت أمي ذلك ودفنت رأسها في صدري وهي تبكي، فقبلت رأسها وأنا أضمه بيد وبالأخرى أربت على ظهرها، وانسابت دموعي قهرًا عليها.

*****

عندما علم عبد العزيز في اليوم التالي ما حدث من أمه من أهل القرية، جاء ليعتذر استقبلته جدتي بوجهٍ عابس، وتحاشت أمي رؤيته فدخلت حجرتها، ولكنه أصر على أن يراها ويتحدث معها خرجت له أمي مكسورة والحزن يغزو قسمات وجهها، فقال آسفًا:

- أنا آسف.. حقًا آسف لم أكن أعلم أن ذلك سيحدث.

لم ترد أمي بل انهمرت دموعها، فقال:

- لا، لا تبكِ أرجوك.. سأفعل كل ما تريدين عدا أن أتركك.

مسحت عينيها وأنفها، وقالت:

- أنا أريد أن تتركني .. هذا ما أريده.

قال عبد العزيز بصوتٍ منكسر:

- لن أستطيع .. منذ أكثر من خمسة عشر عامًا .. وأنا لم أستطع وتقولين ذلك!

كنا نقف أنا وود وجدتي صامتين، لم ترد أمي لم نسمع سوى صوت نشيجها فواصل عبد العزيز يستجديها:

- تزوجيني يا آمال ولن تندمي .. وأمي سوف أرضيها فيما بعد.

*****

الأحد 1 يناير عام 2006

مر على فراقي لصالح ثلاثة أشهر كمرور قطارٍ عرباته لا تنتهي، فوق قلبي يسحقه بلا هوادة، حاولت كثيرًا أن أصل لصالح بلا جدوى، كتبت له عشرات الخطابات ومزقتها، فكرت كثيرًا في كلامه وكلام ود وجدت أنهما محقان، قالت لي ود لتعزيني في حبي الأول: "أعتقد أن أول حب لم يكن للزواج إنما ليُذكرنا كم كنا بُلهاء، رغم ما به من مشاعر جميلة نكتشفها لأول مرة".

رضيت بقدري وأخذت قرارًا أن أبدأ العام الجديد بقلبٍ جديد وروح جديدة، التفت بها لدروسي واختبارات نصف العام التي قد اقتربت، والقراءة وحفظ القرآن بالأحكام والتجويد. عادت ود للكُتاب مرة أخرى بعدما اعتذرت أمي للشيخ فأعادها لأجلها، ورغم ذلك أصبح كثير الاحترم لود.. ربما لحفظ كرامته.

في هذا اليوم ونحن عائدتان من الكتاب، رأيت صالح كنت أحدث ود وأقبض بذراعي الأيسر على مصحفي ودفتري، لمحته دون أن يراني فحولت نظري عنه وارتبك حديثي، بعد عدة خطوات التفت فوجدته ينظر باتجاهي، ابتسم فرددت له الابتسامة فقالت ود:

- لماذا تنظرين له وتضحكين؟ ألم تقولي إنه أصبح مجرد ذكرى تنبئك عن تهورك في الماضي!

- لم يسيء لي ولم أسيء له، انتهى الأمر بالحسنى.

- آمل أن يكون قد انتهى حقًا.

كنت آمل أنا أيضًا بذلك، عقلي اقتنع أنه كان لا بد أن نبتعد، ولكن القلب له أحكام أخرى.

*****

كانت جاءت لجدتي البشرى باختيارها في قرعة الحج، وقبل أن تذهب بأيام قليلة كان بيتنا يعج بالجيران يوميًا؛ ليهنئوا جدتي بأغاني الحج التراثية، والأهازيج، والطبل، والزغاريد وأمي توزع عليهن الشاي والشربات، وأنا وود نقف نشاهد تلك الأجواء بسعادة، ونردد معهن في خفوت.

جدتي في الوسط وحولها النساء يتغنون بسعادة غامرة

"رايحة فين يا حاجة يا أم شال قطيفة

رايحة أزور النبي محمد والكعبة الشريفة

رايحه فين يا حاجة يا أم شال لموني

رايحة أزور النبي محمد وأمليه عيوني

رايحة فين يا حاجة يا أم شال حراير

رايحه أزور النبي محمد وأرجع بالبشاير

رايحة فين ياحاجة يا راكبة السفينة

رايحة أزور النبي محمد وأرجع على المدينة"

ينتهون من الغناء ثم تبدأ وصلة من التوصية، منهن من كانت توصيها بالدعاء لابنتها بالزوج الصالح، ومنهن من كانت توصيها بالدعاء لولدها بالشفاء، ومن توصيها بنجاح حفيدتها ومن توصيها بهداية ولدها العاق، ومن توصيها بماء زمزم، ومن توصيها بمسبحة فسفورية ومصلية. تلك الأجواء هونت أيامي كثيرًا، ولكنها كانت تقض مضجع ود فكانت مرتبطة بجدتي ارتباطًا وثيقًا ويعز عليها فراقها.

*****

قبل موعد سفر جدتي، تزوجا عبد العزيز وأمي رغم أنف أمه، قاطعته ولكنه لم يكن يبالي وترك لها شقته بعدما جهّزها؛ فقد منعته من دخول البيت، كانت تظن أنها بذلك تردعه ولكنه كان بالنسبة له العالم وما فيه في كفة وأمي في الكفة الأخرى، تم الزواج فقط بحضورنا نحن الخمسة

والشاهدان صديقيّ عبد العزيز والمأذون. أخذ عبد العزيز شقة إيجار، ورفض عرض جدتي أن يعيش معنا في بيتنا، واتفق معنا أنهما سيقيمان في شقتهما إلى أن تذهب جدتي للحج، وعندما تذهب سيعيشان معنا وبعدما تعود سيكون نهارهما معنا وليلهما عندهما.

كنت سعيدة من أجل أمي التي كان طريقها في الحياة مخضب بالأسى والجراح؛ فقد عاشت طوال عمرها تتنقل من مأساة لمأساة أشد، ولكنها كانت دائمًا راضية وتقول قضاء الله كله خير.

ذهبت معه للشقة في مساء هذا اليوم بجلبابٍ أبيض مزركش وحجاب أسود، كانت سعادة عبد العزيز العظيمة بادية كوضح النهار، سعدت لأجله أيضًا.

بقيت أنا وود وجدتي، لأول مرة سأنام دون وجود أمي، بكيت فعانقتني جدتي، وقالت:

- في الصباح سنذهب لهما.

قالت ود:

- ماذا لو تزوجا من البداية؟ لا أعلم يا جدتي، كيف توافقين على شرشبيل وترفضين عبد العزيز؟!!.

شعرت جدتي بالندم والخجل، فتجاهلت ما سمعت وقالت وهي تضمنا لصدرها:

- سأنام الليلة معكما.

*****

يقول الراوي

قال عبد العزيز فور دخوله هو وآمال الشقة:

- من يبيت أسعد مني اليوم في العالم؟

ابتسمت آمال فقال يعاتبها:

- كيف تركتني كل هذه المدة؟ كيف هان عليكِ أن تفعلي بي هذا؟!.

زفر وهو يتبع بصوتٍ منخفض:

- كنتُ سأجن.

ردت آمال بنفس النبرة الحانية:

- كنت مرغمة.

لم يتكلم عبد العزيز، عانقها وكان العناق كافيًا لقول كل شيء، بعد طول صمت قال عبد العزيز وهو ما زال يضمها لصدره:

- إذا مت الآن سأكون راضيًا، ماذا أريد بعد ذلك؟.

ربتت آمال بيدها على شعره قائلة:

- بعيد الشر.

- ما زلت تحبيني؟

- لم أتوقف عن حبك يومًا.

*****

صبا

عندما حان موعد سفر جدتي، ذهبنا جميعًا معها للميناء نودعها، قبل أن تركب الباخرة عانقت كلا منا كثيرًا، وقبّل عبد العزيز جبينها، وقال يطمئنها:

- لا تقلقي أبدًا على أي منهن.

ربتت جدتي على ظهره بحب وأومأت وهي تقول:

- لقد زوجتها لك حتى لا أقلق.

ابتسم عبد العزيز فقالت لها أمي:

- لا إله إلا الله.

ردت جدتي:

- محمد رسول الله.

عانقتها ود ثانيًا، وقالت جدتي:

- عندما نصل سأتصل بكم على هاتف بيت أبي عادل.

- حسنًا.

قال عبد العزيز

فقالت أمي وهي تحبس دموعها:

- صاحبتك السلامة.

عدنا جميعًا لبيتنا، قالت أمي فور عودتنا:

- قلبي يأكلني على أمي، أخشى أن تذهب لعنوان حسين وإبراهيم رحمهما الله.

قال عبد العزيز:

- لا تقلقي لقد أوصيت عليها امرأة من قرية مجاورة معها في الرحلة.

قالت ود:

- أريد أن أبدأ في رسم واجهة البيت من الغد.

كانت ود قد اتفقت معنا على أن ترسم هي الكعبة والسفينة، وتكتب عبارات التهنئة والعودة من الحج على جدران البيت من الخارج فقالت أمي:

- لما التعجل؟ أمامك كثير من الوقت.

- لم أجرب أن أرسم على جدران من قبل، وبالتأكيد سأكون بطيئة.

قال عبد العزيز:

- غدًا سأذهب لـ -ببا- وأجلب لك كل ما تحتاجين من أدوات.

لم أدرك هذا الشعور من قبل أن يكون معنا رجل يلبي لنا احتياجاتنا، "ليته كان أبي" جملة لم تفارق أمنياتي البائدة في خاطري.

شكرته ود، كانت خوخة في حجرها، فقالت وهي تمسح على ظهرها:

- هذه خوخة قطتي، تحب المداعبة واللعب يمكنك أن تلاعبها إن شئت.

أخذها فاستكانت في حجره فقال:

- إنها لطيفة.

- ليتك تقنع أمي بذلك، تريد أن تسربها.

تدخلت أمي:

- أخشى عليها من العقم، إنها تُقبلها في فمها.

قال عبد العزيز:

- هذا المرض ينتقل من فضلاتها وبولها، طالما أنها لم تمسهم فهي في مأمن، ثم أن تربيتها للقطة مفيدة، تعرضها لبكتريا القطة يجعل جهازها المناعي يهاجمها وذلك يقوّي من مناعتها.

قالت ود:

- أرأيتِ؟!

فقالت أمي بمداعبة لم أعهدها منها:

- يبدو أنك محامي ماهر .. لقد أقنعتني سريعًا.

قالت ود تشاكسها:

- لا، أنتِ سهلة الإقناع يا أمي، مدى مهارته يحددها إقناع جدتي في أمرٍ ما.

ضحك عبد العزيز قائلًا:

- نقابة المحامين كلها لم تستطع إقناع جدتك في أمر لم تقتنع به وحدها.

ضحكنا جميعًا، فتكلمتُ أخيرًا وقلت:

- هذه الجلسة ينقصها شاي بالنعناع سأعده لكم.

كانت الساعة التاسعة مساءً، وهذا وقت مثالي للنوم في كانون الثاني، شربناه وتركناهما أنا وود ودخلنا حجرتنا لنذاكر ثم لننام، بعد نصف ساعة قالت ود:

- يبدو أنها تمطر .. أشم رائحة مطر.

انتهت من الجملة وسمعنا صوت زخات المطر يطرق خشب النافذة، فأخذنا معطفينا وخرجنا لفناء الدار نفتح ذراعينا للمطر ونحن ننظر للسماء ونضحك، دقيقة وصمتت ود وأطرقت السمع وهي تقول:

- لحظة لحظة .. أتسمعين؟

صمت فسمعت صوت أم كلثوم منبعث من حجرة أمي وعبد العزيز، فقلت:

- هيا نصعد للسطح.

- والمطر والبرد؟!

تركتها وصعدت وأنا أقول:

- هيا.

جاءت خلفي، لم نستطع الاستلقاء جلسنا على حجرين ونحن مطوقتان ساقينا بذراعينا، منكمشتان من الصقيع، دقائق وسكت المطر وسكن الهواء وحل الهدوء، واتضح صوت أم كلثوم جليًا وهي تغني، صمتنا دون ترتيب منا لنسمع الأغنية.

"يا حبيبي تعالى وكفاية اللي فاتنا

هو اللي فاتنا يا حبيب الروح شوية

اللي شفته قبل ما تشوفك عنيا
عمر ضايع يحسبوه إزاي عليّ
أنت عمري اللى ابتدى بنورك صباحه
يا أغلى من أيامي
يا أحلى من أحلامي
خدني لحنانك خدني
من الوجود وابعدني
بعيد بعيد أنا وأنت
بعيد بعيد وحدينا
على الحب تصحى أيامنا
على الشوق تنام لياليا
صالحت بك أيامي
سامحت بك الزمن
نستني بك آلامي
ونسيت معاك الشجن
رجعوني عنيك لأيامي اللي راحوا
علموني أندم على الماضي وجراحه
اللي شفته قبل ما تشوفك عنيا
عمر ضايع يحسبوه إزاي عليّ"

كانت الأغنية كأنها مكتوبة خصيصًا لأجل أمي وعبد العزيز، منذ ذلك اليوم أحببت أم كلثوم وصارت مساءاتي مُعبدة بأغانيها.

قالت ود:

- كنت منزعجة من فكرة زواج أمك، ولكن يبدو إنني سأحب عبد العزيز.

- وأنا أيضًا.. يكفي إنه أعاد ابتسامة أمك.

بعد ثلاثة أيام، كانت ود تضع اللمسات الأخيرة على الجدار الخارجي للمنزل، وضع لها عبد العزيز كرسي ووسادتين لتقف عليهم، وظل معها يشجعها لكي لا تخجل من الجيران والمارة، في هذه الأثناء جاء أحد الصبية يركض وهو يقول "أم حسين على الهاتف تريد أن تحدثكم" تركت ود ما في يدها وركضت خلفه، ثم اتبعناها أنا وأمي وعبد العزيز عند بيت أبي عادل، الذي كان يملك هاتفًا أرضيًا.

قالت ود والحماس يملؤها:

- متى ستأتي؟ لقد رسمت لكِ على الجدار .. اشتقت لك كثيرًا.

أخذت أمي منها سماعة الهاتف وهي تقول:

- أعطيني قبل أن تغلق.

وواصلت تحدث جدتي:

- كيف حالك؟ .. متى وصلت؟

صمتت قليلًا وواصلت:

- الدار ينقصها وجودك.

صمتت قليلًا واتبعت وهي تنظر لعبد العزيز مبتسمة:

- ليت العالم كله مثله .. ها هو معك.

أخذ عبد العزيز سماعة الهاتف قائلًا:

- كيف حالك؟.

صمت قليلًا وواصل:

- جميعنا بخير .. حسنًا أعطني الرقم.

أخرج قلمًا من جيب معطفه ووضع سماعة الهاتف بين أذنه وكتفه، ودوّن رقم على كف يده وقال:

- حسنًا سنتصل عليه.

نظرت له قائلة:

- أريد أن أحدثها.

أعطاني السماعة وهو يقول:

- ها هي معك.

- كيف حالك يا جدتي .. اشتقنا لك كثيرًا.

قالت:

- ليس أكثر من شوقي لكم.

- أجميلة السعودية؟

- أجمل بلاد الدنيا .. أتسأليني عن بلدٍ فيه النبي والكعبة؟!

- استمتعي ونحن بانتظارك.

أغلقنا معها ونحن سعداء، أعطت جدتي لعبد العزيز رقم هاتف محمول لامرأة مصرية تعرفت عليها هناك، تدعى الحاجة راوية؛ لنتصل بها متى أردناها عليه، بينما أنا سألتها عن السعودية لأنني أطمح في لف العالم، كلما سمعت أو قرأت عن بلد أتطلع لزيارتها، حتى أنني كنت أريد زيارة بلاد الواق واق التي لا وجود لها على الخريطة، وأنا لم أتخط عتبة قريتي سوى مرتين، ولكن لا بأس ليس على الطموح حرج.

جاء عيد الأضحى، كنا لم نحول عن قناة السعودية لنرى الحجاج ونسمع تلبيتهم، وكنا نطمح أن نرى جدتي وسط هذه الجموع والحشود تلوح لنا، ونتابع أخبار الحج والحجاج من أجل جدتي، قبل أيام انهار أحد الفنادق في مكة، وأردى عشرات القتلى من الحجاج، يومها جلب عبد العزيز "كارت" وأخذنا إلى أحد كبائن الهاتف لنتصل على جدتي نطمئن عليها.

ثالث أيام العيد، كنا نستعد لقرب عودة جدتي، وننسق أنا وود كيف سيكون استقبال جدتي، جهزنا الطبل وأغاني الاستقبال، ولكن الساعة الرابعة عصرًا سمعنا بحادث تدافع الحجاج بمنى على جسر الجمرات الذي حدث ظهر اليوم، ومات وأصيب فيه مئات الحجاج، لم نقلق كالمرة الأولى ظننا أن جدتي ستنجو مرة أخرى، ولكننا اتصلنا على هاتف الحاجة راوية وأخبرتنا آسفة أن جدتي أصيبت في هذا التدافع تعثرت وسط الحقائب، ومظلتها أصابت أحد جنبيها ونقلتها الإسعاف مع المصابين إلى مستشفى "أجياد" جوار الحرم المكي.

بكينا وظل عبد العزيز يهدئ أمي ويهدئنا حتى تقبلنا ما حدث، مرت أيام وانتهى العيد وعاد الحجاج ولكن جدتي لم تعد، كنا نتصل على المستشفى كل ثلاثة أيام نطمئن على حالتها ويأتوا الجيران ليطمئنوا عليها منا.

يقول الراوي

عندما تحسنت حالة أم حسين لم تهاتف ابنتها وحفيدتيها، بل أخبرت أحد الممرضات أنها تريد أن تصلي في الحرم قبل أن تعود لبلدها، أخبرت الممرضة أحد الأطباء وسمح لها بذلك، ذهبت أم حسين أدت صلاة المغرب في الحرم ودعت الله كثيرًا أن تجد ولديها حسين وإبراهيم، جاء لها خاطر أن تذهب لعنوانهما التي كانت تبعث عليه الخطابات وتحفظه كما تحفظ اسمها "الشرائع، مخطط 9، شارع الفردوس" وعلى الفور عزمت على الذهاب لهما. ترجلت من السيارة، وراحت تسأل كل من يقابلها وهي تريه صورة تجمع ولديها "ألم ترَ هذين؟ هذا حسين وهذا إبراهيم، كانا يعملان هنا في المحارة" يومئ لها بعضهم أن لا، وبعضهم يسير دون أن يقف قبل أن تكمل حديثها، ويقترح عليها أحدهم أن تذهب للسفارة الخاصة بهما وتبلغهم، ظلت هكذا ساعات طوال حتى أعياها الوقوف والسير، فجلست في مكانها ونامت، مر رجل وزوجته يُدعى سليمان العنزي، جعل زوجته توقظها وتسألها ما بها، قالت وهي تضع أصابعها على كتفها برفق:

- أمي.. أمي.

استيقظت فقالت لها:

- أبكِ شيء؟

نهضت أم حسين وهي تقبض على صورة ولديها، وتنفض عباءتها باليد الأخرى وقالت وهي تشير:

- هذا حسين ابني وهذا أخوه إبراهيم كانا يعملان هنا، انقطعت أخبارهما عني منذ أكثر من عشرين عامًا، أبعث لهما الخطابات ولا يجيبان على أيٍ منها.

أشفق عليها الرجل وزوجته فقال:

- ولكن عشرين عامًا كثيرين يا حاجّة!

أخذاها وراحوا يستقصوا عنهما حتى علموا بعد عناء أنهما توفيا إثر حريق ودُفنا في مقابر الصدقة، عندها صدقت أخيرًا، انهمرت دموعها وهي تصرخ من وسط البكاء بآهة جاهدت طوال العشرين عامًا ألا تخرجها.. ولم تحملها قدماها كأنهما توفيا للتو، أجلستها المرأة وجلبت لها ماء، واقترحت على زوجها أن تأخذها معها البيت تكرمها حتى يحدث الله أمرًا؛ فهي غريبة في محنة، وافق وذهبت معهما دون اعتراض، كانت لم تشعر بالدنيا من حولها من الأساس، كأنما غاب عقلها، أخذاها ليهدئا روعها ويكونا عونًا لها حتى تتقبل الصدمة قبل أن يبلغا سفارتها، لم يعلما أن الخبر أتاها منذ عشرين عامًا، وأنها مصابة باضطراب الوهم الذي أفاقت منه الآن، كانت هي في هذا الوقت تحاول أن تستوعب أنهما ماتا حقًا، وأين هي ومن هذان؟ وكيف تستمر الحياة بعد وفاة ولديها؟ كيف ستشرق الشمس وتغرب؟ وما الحياة

أصلًا وما الموت وما هو الأصل بينهما!

جفت دموعها وفرغ قلبها، لم تكن أم حسين متجبرة كما تراها ابنتها، ولكنها كانت تخفي وراء هذا القناع القاسي ضعفها العظيم وهشاشتها البالغة.

عندما انفردت بنفسها واستوعبت ما حدث، فتحت الباب وخرجت سارت هائمة على وجهها دون أن تعرف وجهة محددة، سقطت أموالها وحجابها، بقيّ رأسها بعصبته التي لا تنتزع ولكن صورة حسين وإبراهيم ظلت معها.

في اليوم التالي، بواسطة أحد فاعلي الخير عادت للحرم المكي، كانت لا تريد أن تغادر هذا المكان الطاهر المليء بالطمأنينة والراحة والروحانيات، ولكنها عادت للمستشفى كما أمروها،

ظلت بها أسبوعا آخر، بفعل المهدئات عاد لها رشدها، في هذا الأسبوع هاتف عبد العزيز صديقًا له محاميًا يعيش في جدة؛ ليكون مع أم حسين في غربتها إذا أرادت شيئًا، ويكون معها في إجراءات عودتها، ظل معها حتى حجز لها في عبارة "السلام 98" يوم الأربعاء 2فبراير، قال لها أن تعتبره كولدها فآنست به واطمأنت له، ذهب معها إلى ميناء ضبا في السعودية ووقف معها كثيرًا وسط حشود العائدين، جاءت الرياح أطاحت تذكرة أم حسين من يدها، فذهب جلبها لها وظل معها حتى ركبت وبلّغ عبد العزيز بذلك،فبلغ عبد العزيز بدوره آمال، وصبا، وود واستعدوا جميعًا لاستقبالها، وبكل الحب والشوق أعدوا الطعام وزينوا البيت وجهزوا الطبل والأغاني.

بعد تناول الغداء، نامت أم حسين في "كبينتها" واستيقظت على صوت صراخ ورائحة دخان، من وسط الجلبة والهرج والمرج علمت أن السفينة تحترق، ركضت مع الناس وصعدوا إلى سطح السفينة ألبسوهم سترات النجاة، وازداد الحريق حتى رأوا ألسنة لهبه، بهدوءٍ عجيب ابتسمت أم حسين –سأموت ميتة أبنائي- هكذا فكرت، في حين كان الجميع في حالة هلع. الظلام دامس والرياح شديدة والبرد قارس، لم يروا سوى النار المشتعلة، وصوت التكبير والشهادة وصراخ الأطفال والنساء والبكاء الهستيري لا يكف، مالت السفينة نحو اليمين فأمر قبطان السفينة الجميع بأن يتجه نحو اليسار، انصاعوا جميعًا لأمره.

أرسل قبطان السفينة استغاثات عدة ولم يتلق أي رد، فأمر طاقم مساعديه أن يسمحوا بدخول المياه لإطفاء الحريق الذي نشب، دخلت المياه كالشلال وعطلت المحركات عن إخراجها، أيقن القبطان أن السفينة ستغرق لا محالة، فهرب مع بعض من أفراد الطاقم، وترك الجميع يواجه مصيره مع الموت المحتم، "يبدو أنه يوم السمك"؛ قالها أحد أفراد طاقم السفينة الذين لم يفروا ساخرًا عندما أيقن بهلاك الجميع.

وبهذا الرتم السريع للأحداث غرقت السفينة بتلك السرعة، جاءت موجة شديدة أخذت أم حسين وبعضًا من الأطفال والرجال والنساء، تفرقوا في المياه، نظرت أم حسين حولها، لم تر شيئًا ولكنها سمعت أمهات يصيحن بأسماء أولادهن، ورجال ينادون على زوجاتهم سمعت واحدة، تنادي "حسين" تخيلته ولدها توهمت أنه هو حقًا ظلت تبكي وتنادي

"حسين" "حسين أين أنت؟" وجدت رجلًا يتشبث ببرميل جوارها تشبثت به معه، ظلا في الظلام الدامس معًا حتى فرقتهما موجة.

تحجرت مشاعرها وتوقف بكاؤها، أخذتها الرياح والأمواج حتى وجدت نفسها وسط رجال ونساء وأطفال يقفون في الماء ممسكين بأيدي بعضهم البعض ،وقفت معهم حتى جاءت موجة شديدة فرقتهم جميعًا، بزغ النهار فرأت رماث نجاة كان به ما يقرب من أربعين من الرجال والنساء وطفلين فقط، أخذها أحدهم على متن الرماث، كان هناك ثلاثة أشخاص ممسكين بأحبال الرماث منهم والد الطفلين لم يوافق القبطان على ركوبه؛ لأن وزنه زائد والعدد فوق الرماث كبير، ظل الأب ممسكًا بالأحبال وطفلاه ممسكين به كلما جاءت موجة يشدا على يده ويمتلئ الرماث بالماء فيفرغوه الركاب حتى لا يغرق بهم، كانت تنظر أم حسين للطفلين وتتخيلهما حسين وإبراهيم فتبكي، ظلوا يومًا آخر في عرض البحر على ظهر الرماث، عندما حل الليل توفيّ أحد الرجال من البرد القارس، فألقاه القبطان في البحر حتى يتثنى له ركوب واحد من الثلاثة الممسكين بالأحبال. كان صوت ذكر الله لا ينقطع وبكاء الطفلين يخمد ثم يعلو من جديد، وفجأة أشار القبطان للجميع بأن يصمتوا تمامًا وأغلق المصباح، وبعد ساعتين في صمت تام أضاء القبطان المصابيح وقال لهم "اذكروا الله"

سأله أحدهم:

- لما أمرتنا بالصمت من قبل؟

أجابه:

– هناك علامات في البحر تدل على وجود أسماك قرش في هذه المنطقة، إن لم نفعل ذلك كان أحدهم سيلتهمنا جميعًا في قضمة واحدة.

شعرت أم حسين بالخوف، لا تريد أن تموت بهذه الطريقة، لا تريد أن يمضغها قرش ويلوكها بين أسنانه، إن كان بالحريق كابنيها لتشعر بما شعرا به فلا بأس..

رأوا سفينة تمر بالقرب منهم فظلوا يصرخون جميعًا "نحن هنا" "انقذونا" أشعل القبطان "شماريخ" من الموجودة بالرماث لينبئ السفينة عن تأهين هنا، ولكن من على السفينة لم يلقوا لهم بالًا، كانت أم حسين ترتجف من البرد وأسنانها تصطك ببعضها، وأخيرًا من بين هذه الأهوال تذكرت آمال وود وصبا، تمنت لو أنها بينهن الآن لتحكي لهن أن حسين وإبراهيم قد ماتا ليدثروها بعناقهم، ويمسحون عبراتها بكفوفهم، بعد كثيرٍ من الوقت شعرت بأنها تتجمد فنظرت حولها بنظرة لا مبالية لصراخ الأطفال والنساء، ولا للرعب في عيون الشباب ولا لتمتمة كبار السن بالدعاء، لم يهزها شيء كأنها مخدرة تمامًا؛ ففي هذه اللحظة أيقنت أن الحياة تافهة ورخيصة ولا تستحق أي مقاومة للبقاء فيها.

وإن كان الموت طائرًا يحلق فوق رؤوسهم الآن ليلتهمهم؛ فهي لا تخشاه ولا تهابه فليقبض روحها بهدوء واستسلام دون أدنى مقاومة..

في هذه اللحظة تمامًا التي أيقنت فيها ذلك ماتت، وألقوا بجسدها الهزيل الذي أرهقته الأيام في مياه البحر، وصلوا عليها صلاة غائب كالذي

قبلها، وصعد والد الطفلين بعدما اهترئ جلده واحترق من المياه المالحة وحرارة الشمس.

صبا

الخميس 2 فبراير السابعة مساءً

كنا نتابع مباراة مصر وجمهورية الكونغو الديموقراطية، في ربع النهائي في فاعليات بطولة كأس أمم إفريقيا. كان الشعب المصري كله يتابع تلك البطولة بحماس شديد، ولم يشغله شيء في هذه الأيام سواها، المقاهي جميعها ممتلئة بالرجال كبار وصغار، والتلفاز يذيع الأغاني الوطنية، والأطفال في الشوارع تراهم يرسمون علم مصر على وجوههم، هذه الأجواء جعلتني أنا وود نريد مشاهدة المباراة رغم أننا لم نكن من محبي كرة القدم. اقترح علينا عبد العزيز أن يأخذنا عند أحد أصدقائه الذين عندهم وصلة تبث هذه المباريات، شعرنا بالخجل فلم نوافق، ولكننا شاهدناها بطريقة ما، كلما جاء هدف نسمع من المقهى القريب منا صراخ وصفير الشباب وهتاف "أهم أهم أهم المصريين أهم"، فنصفق بسعادة أنا وود ونقول "هدف آخر"، وتضحك أمي مسرورة لسرورنا، سمعنا صوت الصريخ والصفير أربع مرات متفرقين؛ فعرفنا بعد انتهاء المباراة أننا فزنا بأربعة أهداف ولم نعرف نتيجة المنتخب الآخر، حتى عرفنا أننا فزنا بأربعة أهداف مقابل هدف من التلفاز الذي كان يذيع بعض من مظاهر الشعب المصري بالاحتفال، على أغنية ياسمين الخيام التي صرنا نردد معها أنا وود:

مبروك مبروك مبروك

مبروك عليكم وعلينا

مبروك مبروك مبروك

مبروك يا ناسنا وأهالينا

يارب كتر أفراحنا

يارب كتر أفراحنا

وعلى قد نيتنا إدينا

الله على الفرحة جميلة بتلم شمل الأحباب

نصرخ بصوت مرتفع ونحن نردد:

الله الله الله

والليلة أسعد ليالينا وقلوبنا من الفرحة شباب

نردد مرة أخرى بسعادة:

الله الله الله

يارب كتر أفراحنا

يارب كتر أفراحنا

وعلى قد نيتنا إدينا

تصقيفة تصقيفة يلا"

فنصفق أنا وود ثلاث

تصقيفة للي يفرحنا

فنصفق ثلاث مرة أخرى"

أظن هذا أجمل ما فينا كمصريين؛ أننا شعب يحب البهجة مقبل على الحياة رغم الفقر والعوز، إلا إنه يقتنص دائمًا كل شيء ويجعله مناسبة لها أغان خاصة، هذه الليلة شعرنا بالانتماء الشديد وحب الوطن، وهذا جعلني أستغرب كيف لقطعة مستديرة من الجلد أن توحد شعب بأكمله وتجعله سعيدًا هكذا؟!

في هذه الليلة السعيدة كنا ننتظر خبر وصول جدتي، ولم نكن نعلم أننا في هذه اللحظات التي نلهو بها كانت جدتي تصارع الموت بين أمواج وقروش البحر الأحمر.

تحولت سعادتنا في الليلة الماضية إلى كابوس مريع في اليوم التالي؛ إذ أتانا خبر غرق عبارة "السلام 98" القادمة على متنها جدتي.

ذهبنا جميعًا إلى ميناء سفاجا في البحر الأحمر ونحن ذاهلون لا نصدق، كنا في حالة فزع نبكي وندعو بألا يصيب جدتي سوء وتكون من الناجين، عندما وصلنا وجدنا آلاف الناس منتظرين ذويهم في حالة ترقب وخوف من القادم.

لا أحب تذكر هذا اليوم، وكيف تعاملت معنا الشرطة، وكيف رأينا فجيعة من فقد عائلته بأكملها، ومن فقدت رضيعها، ومن فقد زوجته وأبناءه، ولكننا لم نجد جدتي من الناجين ولا الضحايا المعلن عنهم.

مرت أيام كالكابوس الذي لا ينتهي ونحن نتابع نشرات الأخبار، كل يوم يتم الإعلان عن جثث جديدة تم انتشالها، وعناوين الصحف تعلن عن أسماء ضحايا وناجين جدد، غدت أيامنا سوداء كاحلة، اليأس كان يعبث

بأملنا في نجاة جدتي، حتى علمنا في 7 فبراير من قناة النيل للأخبار أن هناك جثث طفت على سطح الماء وانتشلتها فرق الإنقاذ، كانت جدتي من بينهم، انخلع قلبنا لرؤيتها ووجهها منتفخ لونه أزرق ومليء بجروحٍ شوهت ملامحها، طارت كفوفنا لفمنا فور رؤيتها، تعرفنا عليها من عصبة رأسها كانت ذات ألوان مميزة ومن عباءتها، ولكننا أنكرنا أنها هي ظلت ود تقول دون أن تبكي وهي تهز رأسها:

- ليست جدتي .. جدتي حية، لقد رأيتها في المنام أمس تقول لي أنها حية.

نظرت ود لأمي التي تصرخ، ووضعت يدها على فمها لتكتم بكاها وهي تقول غاضبة:

- لا تصرخين ليست أمك.

وقلت أنا ودموعي تنهمر:

- ربما تشبه عباءة جدتي.

قالت أمي بصراخ يشوبه الغضب:

- اصمتا إنها جدتكما .. من سيعرف أمي أكثر مني؟

ظلت ود تهزها وهي تقول:

- استيقظي يا جدتي أرجوك .. أريدك أن تري ما رسمته لك على جدار الدار .. وغلاوة حسين وإبراهيم تستيقظي.

صمتت قليلًا ونحن نبكي، ثم قالت بغضبٍ:

- هيا استيقظي.

نظرت لي وهي تقول:

- هل ماتت حقًا؟ أيمكن أن تموت جدتك كما يموت الناس؟

عانقتها وهي تقول باكية:

- انظري يا صبا .. هذه ليست جدتك أليس كذلك؟! ليست هي.

وضم عبد العزيز أمي لقلبه، وأطلقنا العنان لدموعنا جميعًا، بكينا كالأطفال، لم أر الناس من حولنا في المستشفى، ولكني أعتقد أنها كانت نظرة الشفقة ذاتها والخوف الذين كنا نرى بهم من يعثر على ذويه قبلنا، كان ما حدث فظيعًا، صدمة لم يستعبها عقلنا ولا يسعها قلبنا الصغير الذي شاب بين عشية وضحاها، مرة أخرى يالقساوة الموت! حين يأخذ منا عزيزًا، كنا نستثنيه دائمًا من فكرة الموت، نظن الجميع سيموت عدا هو.

يقول الراوي

رحلت أم حسين وأخذت معها بهجة الحياة ونورها، كان فقدها بالنسبة لهم غصة العمر التي لا تنتهي، ولكن ما هوّن عليهم قليلًا فداحة ما حدث، أنهم عثروا على جثمانها ليكون لها قبر يعرفونه، يذهبون له ويتونسوا بطيفِ رفاتها، دائمًا في قلبِ البلاءِ ثمة قسطٌ من الرحمة ولكن ليس الجميع يدرك ذلك.

تعاقبت الأيام والشهور، كان عبد العزيز محاميًا من الذين يتابعون قضية غرق العبارة، ولكن آمال وابنتيها انطفأوا تمامًا، ولم يبالوا بقضية أو

غيرها، ببراءة ممدوح إسماعيل مالك العبارة أو بإعدامه، الأمر بالنسبة لهن أصبح سِيّان طالما أنه لن يعيد أم حسين للحياة مرة أخرى، كلما أصابهم سوء تذكروها وكلما أصابهم مسرة تذكروها فيغصوا،

يتذكرونها دائمًا، يغصوا كلما تذكروا أنها ماتت وهي لا تعرف أن ولديها قد ماتا، لا يعلمون أنها علمت ذلك ولحقت بهما بعد معرفتها بأيام قليلة.

قست الأيام على آمال أكثر من اللازم وأظلمت، ولكن عبد العزيز كان كشعاع النور الذي يشق الظلام، استطاع أن يلطف أيامها بعض الشيء بحبه وحنانه عليها هي وابنتاها، كان يأخذهن لقبر أم حسين من حين لآخر وكلما نزل القاهرة يعود محملًا بالهدايا لكلٍ منهن، مرة يجلب لصبا كتابًا أو أصيص نبات، ولود دفتر رسم أو طعامًا معلبًا للقطة، لم يعرف ماذا تحب آمال كانت زاهدة دائمًا، فكان يجلب لها باقة ورد، أو سكر نبات، أو طرحة وكل مرة كانت تفرح كثيرًا بهديته، وتشعره بأنه جلب لها العالم وما فيه.

*****

صبا

أصبحت أمي مكان جدتي، تطعم الدجاج وتبيع البيض الفائض عن الحاجة، وتوالي زراعة الأرض، وتخبز يوم الثلاثاء وتتلو على رأسنا القرآن كجدتي تمامًا، كل شيء كانت تفعله جدتي، أصبحت تفعله أمي زادت عليها الأعباء، كانت تفعل ذلك حتى لا تشعرنا بغياب جدتي، ولكن لا أحد يملأ

مكان أحد، رغم أن جدتي كنت أراها ديكتاتورية بعض الشيء إلا إنها كانت مصدر أماننا الوحيد، الدرع الذي يحمينا من هجمات الأيام، كان لا أحد يجرؤ أن يمسنا بسوء، أصبح بيتنا الذي كان سعيدًا في الماضي يغزوه الحزن كمجلس عزاء، ود كانت أكثرنا حزنًا وحسرة على فراق جدتي ظهر ذلك في تصرفاتها ورسوماتها التي طغى عليها طابع الكآبة..

ولكن عبد العزيز كان يستميت ليخرجنا من تلك الحالة برعايته لنا وهداياه التي تبث في قلوبنا سعادة مؤقتة، أحببناه ليس من أجل الهدايا إنما لأنه يستحق أن يُحب، كان يعاملنا كأننا بناته تمامًا، أظن أنه رحمة أرسلها الله لنا لتعوضنا غياب أبينا وفقدان جدتي، كان يتحدث معنا في مواضيع عدة ويسمع آراءنا، ويفتح لنا آفاقًا جديدة ذات يوم بعد العشاء استغل جمعنا، وقال:

- الموت قاسٍ ومُر.. إنه أقسى أشكال الفراق، ولكن لا بد أن نستمر في حياتنا، لا بد أن نتجاوز.

قالت ود:

- كيف يتجاوز من بتر ذراعه هذا البتر وهو يرى نفسه كل يوم في المرآة؟ موت جدتي هكذا كبتر جزء من الروح.

رد عبد العزيز:

- من بتر ذراعه سيتجاوز يومًا ما ويتأقلم، وإلا سيكون قاصر العقل كالذي يبكي على اللبن المسكوب، لأن ذراعه بتر سواء قبل أو لا.

تدخلت قائلة:

- هل تقصد أن ننسى جدتي؟!

قال:

- لا لم أقصد ذلك، ما أقصده أن لا تجعلوا الحزن يتمكن منكن ويعيق حياتكن، أن تحزن بقدر وتعطين لكلِ شيء حقه هكذا تأخذ الحياة معناها.

قالت ود:

- جدتي تستحق أن نحزن عليها العمر كله.

نهضت أمي ودخلت تعد لنا الشاي، أظن أنها دخلت حتى لا يلاحظ أحدنا دموع في عينيها، فقال عبد العزيز:

- ماذا كانت تحب أن تقدمه لكما جدتكما في حياتها؟

قلت أنا:

- الحب والبهجة والأمان.

- إذًا لا بد أن يكون هذا مذهبكما في الحياة أن تبحثا عن الحب والبهجة من باب الوفاء لها؛ لأنها بالتأكيد لا تحب أن تراكما بأستين لفقدها.

أقنعني منطقه وأعجبني، وبمرور الأيام تعايشنا ولكن لم ننس جدتي يومًا، لا يستطيع المرء نسيان جزء من قلبه، تبقى الذكريات في العقل تحاصر القلب حتى تفطره.

مارس 2008

جلب لي عبد العزيز ديوان شعر "ماذا أصابك يا وطن" للشاعر فاروق جويدة، كان به ثلاث قصائد، قصيدة تحمل اسم الديوان وقصيدة هذي البلاد لم تعد كبلادي، وقصيدة عتاب الأحباب للأحباب، أحببت كثيرًا هذي البلاد لم تعد كبلادي، وماذا أصابك يا وطن التي أثارت عاطفتي؛ لأنها كانت مهداة لضحايا عبارة سالم أكسبريس وعبارة السلام التي راحت جدتي بين ضحاياها، فناديت ود لتقرأها تأثرت بها وأعجبتها كثيرًا فقالت:

- ما رأيك لو ألقيتها في الإذاعة المدرسية؟

منذ فترة نبّه عبد العزيز ود أن صوتها رائع في الغناء وقال لها "جربي أن تأخذي فقرة النشيد أو إلقاء الشعر في الإذاعة المدرسية ستكونين رائعة" فقلت جملته:

- ستكونين رائعة.

أخذت الديوان ووقفت أمام المرآة تلقيه حتى رضيت عن أدائها، وقالت:

- في المساء سألقيها أمامكم وتقيموني.

جمعتنا في المساء وألقتها بأداءٍ رائع فصفق لها عبد العزيز وقال:

- رائع ولكن لا بد أن تحفظي القصيدة، إن حفظتيها سيكون أداؤك انسيابي أكثر، وربما تخطئ عيناك فتتركين سطرًا أو تعيديه.

وافقته قائلة:

- أنا أيضًا أرى أن تحفظيها أفضل.

نظرت ود لأمي قائلة:

- وأنت يا أمي، ألم يكن عندك ملاحظة؟

واصلت مداعبة:

- أدلي بدلوك، أم إنك تؤيدين كلام سيادة المحامي المبجل؟.

قالت أمي مبتسمة:

- أنا لا أفهم نصف أحاديثكم ولكنك رائعة.

قال عبد العزيز متعجبًا بعدما أخذ الديوان قرأه:

- كيف طُبع هذا الديوان ووزع؟ ربما عيون مبارك غافلة هذه الأيام.

قلت أشاكسه:

- حسنًا سأبلغ عنك لكي تكافئني الدولة.

ضحك قائلًا:

- هذا جزاء سنمّار.

عقدت حاجبيّ قائلة:

- من سنمّار هذا وما هو جزاءه؟

قالت ود:

- إن كان رجلًا شريرًا فسأضيف هذا الاسم لقائمة أسماء أبي.

لم نعهد روح ود الدعابية منذ وفاة جدتي، فتلك التفصيلة أسعدتنا

ضحكنا فقال عبد العزيز:

- سنمّار هذا كان بناءًا عظيمًا في بلاد الحيرة، وأراد الملك النعمان بن امرئ القيس أن يبني قصرًا عظيمًا يفاخر به العرب، فجلب "سنمّار" وقال له

ستكون لك مكافئة عظيمة إذا بنيت قصرًا لم يبن أحد مثله. فأخذ سنمار في بناء هذا القصر وقتًا طويلًا حتى بناه، وكان تحفة معمارية، رآه النعمان فأعجبه فقال له سنّمار وهو يمدح في صنيعه أن هذا القصر به حجر لو تحرك من مكانه سقط القصر كله وهذا الحجر لم يعرفه أحد سواه، فأخذه النعمان فوق سطح القصر وألقاه من فوقه حتى لا يبني لأحد مثله، وحتى يموت سره معه وكان هذا جزاء سنّمار..

واصل يتصنع العتاب مداعبًا:

- أأجلب لكِ ديوانًا؟ فتبلغين عني؟!

- حسنًا، لن أبلغ عنك لأن القصة أعجبتني.

فقطعت ود حديثنا، وقالت:

- إذًا النعمان هو الشرير في هذه القصة فسأضيف اسم النعمان لقائمة أسماء أبي.

ضحكنا جميعًا، فأخذتُ ود وصعدنا للسطح منذ وقت طويل لم ننم تحت النجوم ونتسامر، عندما صعدنا وتلحفنا السماء قلت:

- تبدين متفائلة سعيدة على غير العادة .. ماذا هناك؟ أهو حب؟!

- تقريبًا.

نظرت لها وقلت بجدية:

- هل هناك حب؟.. أنا جادة.

- أجل.. ولكن لا تسأليني من.

- لما؟

- هكذا.

- هل سأخبر أمك أو عبد العزيز مثلًا؟

- لا، ولكنك ستمطريني بالنصائح وأنا لا أريدها، لأنني أحببته وما حدث قد حدث.

أكلني الفضول فقلت:

- لن أنصحك.. من؟

- أريد تعهد بأن لا تعترضي ولا تنصحيني بالابتعاد وهكذا.

- لا تكوني سخيفة.

- أستاذ إسماعيل مدرس الجيولوجيا.

ظننتها تمزح فضحكت قائلة:

- هيا يا ود.. حقا من هو؟

فقالت:

- كما أخبرتك.

عقدت الصدمة لساني، بعدما استوعبت ما قالت، قلت:

- هل أنت جادة؟

- أجل.

- أهو يحبك؟

- أعتقد ذلك.

- ود أنه أكبر من عبد العزيز .. أنه تخطى الأربعين.

- أين التعهد؟

- لذلك أردت أن تلقي القصيدة في الإذاعة حتى يراك؟

أومأت برأسها وهي تقول:

- أجل .. هو ذاك.

لم أستطع أن أعترض فقد ألزمتني، يبدو أن ود حسبتها بعقلها وبتجربتها الماضية؛ فوجدت أنها لا تصح أن تحب من في مثل عمرها؛ لأنهم تافهون وغير ناضجين، ولكنها أحبت من يضاعف عمرها ربما ثلاث، كنت أرى تفضيل أستاذ إسماعيل لها وحبها له، ولكني كنت أظن أنها مشاعر عادية بين معلم وطالبته!!

*****

بعد أيام، في طابور الصباح، أخذت ود الميكروفون حين كان دورها وراحت تلقي بثقةٍ وثبات القصيدة التي حفظتها وهي توزع نظرها على الجميع:

"أنا من سنين لم أره

لكن شيئًا ظل في قلبي زمانًا يذكره..

عمي فرج..

رجل بسيط الحال

لم يعرف من الأيام شيئًا

غير صمت المتعبين

كنا إذا اشتدت رياح الشك

بين يديه نلتمس اليقين..

كنا إذا غابت خيوط الشمس عن عينيه
شيء في جوانحنا يضل .. ويستكين
كنا إذا حامت على الأيام أسراب
من اليأس الجسور نراه كنز الحالمين..
كم كان يمسك ذقنه البيضاء في ألم
وينظر في حقول القمح
والفئران تسكر من دماء الكادحين

عمي فرج..
يومًا تقلب فوق ظهر الحزن
أخرج صفحة صفراء إعلانا بطول الأرض
يطلب في بلاد النفط بعض العاملين
همس الحزين وقال في ألم:
أسافر.. كيف يا ألله!
أحتمل البعاد عن البنية.. والبنين؟!
لم لا أحج! فهل أموت ولا أرى
خير البرية أجمعين..
لم لا أسافر.. كلها أوطاننا..
ولأننا في الهم شرق.. بيننا نسب ودين.
لكنه وطني الذي أدمى فؤادي من سنين

ما عاد يذكرني.. نساني..
كل شيء فيك يا مصر الحبيبة
سوف ينسى بعد حين..
أنا لست أول عاشق نسيته هذي الأرض
كم نسيت ألوف العاشقين..

عمي فرج..
قد حان ميعاد الرجوع إلى الوطن
الكل يصرخ فـوق أضواء السفينة
كلما اقتربت خيوط الضوء عاودنا الشجن
أهواك يا وطني..
فلا الأحزان أنستني هواك ولا الزمن

عمي فرج..
وضع القميص على يديه
وصاح: يا أحباب لا تتعجبوا
إني أشم عبير ماء النيل فوق الباخرة
هيا احملوا عيني على كفي
أكاد الآن ألمح كل مئذنة
تطوف على رحاب القاهرة..

هيا احملوني
كي أرى وجه الوطن..
دوت وراء الأفق فرقعة
أطاحت بالقلوب المستكينة
والماء يفتح ألف باب
والظلام يدق أرجاء السفينة
غاصت جموع العائدين تناثرت
في الليل صيحات حزينة

عمي فرج..
قد قام يصرخ تحت أشلاء السفينة
رجل عجوز
في خريف العمر من منكم يعينه
رجل عجوز آه يا وطني
أمد يدي نحوك ثم يقطعها الظلام
وأظل أصرخ فيك: أنقذنا.. حرام
وتسابق الموت الجبان..
واسودت الدنيا وقام الموت
يروي قصة البسطاء
في زمن التخاذل والتنطع والهوان..

وسحابة الموت الكئيب
تلف أرجاء المكان

عمي فرج..
بين الضحايا كان يغمض عينه
والموج يحفر قبره بين الشعاب.
وعلى يديه تطل مسبحة ويهمس في عتاب
الآن يا وطني أعود إليك
توصد في عيوني كل باب
لم ضقت يا وطني بنا
قد كان حُلمي أن يزول الهم عني.. عند بابك
قد كان حُلمي أن أرى قبري على أعتابك
الملح كفنني وكان الموج أرحم من عذابك
ورجعت كي أرتاح يومًا في رحابك
وبخلت يا وطني بقبر يحتويني في ترابك
فبخلت يومًا بالسكن
والآن تبخل بالكفن
ماذا أصابك يا وطن؟!"

ألقتها بأداء عظيم بحق، بكت في آخرها لتصور جدتي وهي تموت ميتة عمي فرج، شعورها الصادق وصل للجميع فانبهروا بها وصفقوا لها بحرارة كنت سعيدة أنها أختي، كنت أنظر لها بينما هي تمسح دموعها وتنظر لأستاذ إسماعيل ولكنها نظرت لي أخيرًا، أشرت لها بإبهامي بمعنى أن أداءها كان رائعًا فزادت ابتسامتها..

*****

يقول الراوي

دعا أستاذ إسماعيل ود لمكتبه، قال لها في آخر حصته وهي تصحح دفترها "مري عليّ في مكتبي وقت الفسحة"، لم تخبر صبا بذلك، ووقت الفسحة تركتها مع صديقتها منال وذهبت له في مكتبه، كان ينتظرها فقال فور دخولها:

- كنتِ رائعة اليوم.

ابتسمت ود فواصل:

- أنت رائعة دائمًا.

فقالت:

- صبا أختي تقول دائمًا مقولة تحبها "كل يرى الناس بعين طبعه" فأنت تراني رائعة لأنك كذلك.

ابتسم قائلًا:

- وأنتِ ما مقولتك المفضلة إذًا؟

نظرت ود يمينًا للأعلى تفكر ثم قالت مداعبة:

- عندما أسمع إحداهن تقول الحصة القادمة جيولوجيا.

ضحك إسماعيل فقالت ود بجدية:

- لم تكن لي جملة مفضلة، ولكني أمس سمعت جملة عبقرية لعمر بن الخطاب، أعجبتني كثيرًا ويبدو إنني سأتخذها شعارًا لي في الحياة.. تقول "خاطبوا الناس على قدر عقولهم".

- يبدو إنني سأتخذها أيضًا.

دخل جمال مدرس الأحياء الغرفة ممسكًا بدفتره وعصاه، فقال إسماعيل:

- أخبري الفتيات إن غدًا امتحانًا.

- حسنًا.

همت أن تغادر ولكن جمال نظر لها قائلًا:

- كيف حالك يا ود؟ ما هذا الأداء الرائع الذي رأيناه منك اليوم؟ لقد تأثرنا جميعًا.

- أطمح أن تعفيني من الأسئلة اليوم، مقابل هذا التأثر.

- حسنًا، إعفاء اليوم.

- شكرًا.

قالتها ود مبتسمة وهي تشير بكفها كالتحية العكسرية وغادرت، فقال جمال وهو يتابع خروجها من الباب بعينيه ويتفحصها:

- يا حظ من سيتزوج هذه الفتاة.

- لِمَ؟

- مميزة في كل شيء.. جميلة .. وذات قوام حسن .. وذكية.

غمز له وهو يواصل:

- وجريئة.

*****

صبا

في المساء، كنت أروي نباتاتي، أصبح عندي ريحان .. وياسمين .. وفل .. وعطر.

بعد الري أخذت زهر الفل والياسمين وضعتهما في كوب ماء لآخذهم لحجرتي ينشروا العطر بها بينما أذاكر دروسي، نزعت الأوراق الصفراء من الريحان والأوراق التي نقّزتها العصافير، ووقفت مستاءة أضع يدي في خاصرتي جاءت ود تحمل خوخة وهي تقول:

- ماذا هناك.

- أضع النباتات بالدخل تأكلها المعزة والدجاج، أضعهم على الدَّرج تقلبهم خوخة، أضعهم هنا في مدخل الدار تأكلها العصافير.. ماذا أفعل؟ أضعهم فوق رأسي!

- ضعيهم على نافذة حجرتنا.

- أخشى أن يعبثوا بهم أطفال الحي.

- ضعي الحجاب على رأسك وأخبري عبد العزيز بالتأكيد عنده حل.

أخبرت عبد العزيز فجاء صنع لي فزاعة ترهب العصافير.

بعدها دخلت ود عندي الحجرة وأنا أذاكر، فقالت:

- أرأيتِ؟ عبد العزيز حل لك المشكلة سريعًا، دائمًا الكبار عندهم حل، لا أعلم كيف كنت أحب حامد الطفل التافه؟!، لا وكانت أمنيتي أن أتزوجه يا لتفاهتي حينها.

- بعد عامين أيضًا ربما تتعجبين كيف كنت تحبين رجلًا بعمر زوج أمك، نحن في مرحلة المراهقة الآن يا ود ومشاعرنا ليست ثابتة، فلا تكثرين من تجاربك حتى لا تندمين في المستقبل.

- لن أكثر تجاربي؛ لأن أستاذ إسماعيل سيكون زوجي.

ضحكتُ ساخرة، فقالت ود غاضبة:

- ما يضحكك؟

- تسبقين اسمه بأستاذ كيف ستقولين له أحبك؟ إنها علاقة بائسة.

- بمجرد أن يخطبني ستزول كل الحواجز.

تركت الكتاب من يدي وقلت:

- ود، أنا لا أنكر أن حبك لأستاذ إسماعيل أخرجك من مزاج الحزن والاكتئاب، هذا تمامًا ما كنا نريده، ولا أريد أن أنصحك بنصائح لا تريدينها، ولكن فكري قليلًا.

- لماذا أفكر؟ على الأقل هو ليس مسيحيًا.

- حسنًا.. كما ترين.

هذا هو الرد المثالي بالنسبة لي عندما يصل الحوار لطريقٍ مسدود.

- أتذاكرين لاختبارِ غد؟

- أجل ألم تذاكري أنتِ أيضًا؟ إنها مادة حبيب القلب!

- ذاكرت بينما كنت تشاهدين مسلسلك الممل.

*****

في اليوم التالي، بعد امتحان الجيولوجيا قال أستاذ إسماعيل موجهًا حديثه لود:

- اجمعي الورق واجلبيه لي في غرفتي.

جمعته ود ولحقت به في مكتبه، غابت أكثر من خمس دقائق وجاءت، لم أستطع التكلم معها أمام منال، صديقتنا الثالثة في الدكة. في المرحلة الابتدائية والإعدادية كنا دائمًا نجلس نحن الاثنتان فقط في الدكة، ولم تشركنا ثالثة ولكن في المرحلة الثانوية جلست جوارنا منال في عامنا الثاني هذا. فتاة طيبة وخجولة، لم تتحدث كثيرًا، انتظرت موعد الانصراف لأعرف منها ماذا قال لها، حتى جاء، ونحن عائدتان للمنزل قالت ود قبل أن أفاتحها:

- أعرف تتلهفين لمعرفة ماذا قال لي أستاذ إسماعيل.

- أجل ماذا قال لكِ؟

- يريدني أن أرتدي النقاب، طبعًا لم يقل الأمر مباشرة، ولكني سعيدة جدًا لأني تأكدت هكذا أنه يحبني، أليس كذلك؟

- وهل سترتديه حقًا؟

- لا أريد أن أرتديه ولكني سأفكر.. لما لا؟

- ماذا ستقولين لأمك وعبد العزيز.

- سهلة .. أردت أن أرتديه.

- عمومًا انتبهي .. نظراتك لأستاذ إسماعيل ودعوته لكِ في مكتبه من حين لآخر أصبحت ملفتة.

*****

فكرت ود في ارتدائها للنقاب، ظلت في صراع، أتخفي جمالها الذي يميزها بين أقرانها؟ أم تظل كما هي؟، أمور كثيرة تفكر بها، قرار لم يكن سهلًا لتأخذه بين ليلة وضحاها، أخذت رأي عبد العزيز الذي تثق برأيه، أجابها أنه يحترمه ولكن لا يحبذه لها الآن في هذا العمر، قبل أن تخطب على الأقل وأخبرها أنها في النهاية هي حرة في قرارها، الذي لم يكن قرارها من الأساس، أعرف ود أختي، عنيدة كجدتي صعبة المراس، هذه الجملة "في النهاية أنتِ حرة في قرارك"، ربما أرقتها وجعلتها تشعر بالعار من نفسها أمامي على الأقل؛ لذا قررت أنها لن ترتديه.

قالت لي:

- لن أرتديه إذا لم يكن لرضا الله.

*****

يقول الراوي

بعد أيام في حصة اللغة العربية، كانت ود تتحدث هي وصبا بصوتٍ منخفض رأتهما المعلمة هالة فأوقفتهما يعربان كلمة، فلم تعرف ود التي كانت البداية عندها، أخذت وقت طويلًا فهمست لها صبا:

– مفعول به منصوب بالفتحة.

لم تسمعها فسارت المعلمة نحوها وأشارت لها بالعصا قائلة:

– افتحي يدك.. ولا تتكلمي مرة أخرى أثناء الشرح.

قالت ود:

– لن أتكلم مرة أخرى أثناء الشرح، ولكني لن أُضرب.

احتد صوت المعلمة وقالت:

– لن أكرر ما أقول افتحي يدك ولا تضيعين وقت الحصة.

– حتى لا أضيّع وقت الحصة سأنصرف منها.

قالت ذلك وزاحت الدكة برفق في هدوء وغادرت الفصل، رفعت المعلمة حاجبيها بدهشة وقالت:

– ستحاسبين على هذا ولكن بعد الحصة.

لم تبال ود بما سمعت، واتجهت نحو سور الردهة استندت عليه بذراعيها وراحت تنظر في فناء المدرسة، من الطابق الثالث كان نظرها معلقًا بالفتيات اللواتي يلعبن بالأسفل، ولكن كان يرن في أذنها صوت جدتها وهي تقول:

- لم يكن لكِ أخ ولد .. وأبوك كلب .. وخالاك في الغربة، فلا بد أن تكوني قوية حتى لا يمطتيكِ أحد، لا تسمحي لأحد أن يمسك بسوء.

نزلت دمعة وحيدة على وجنتها منذرة بهطول شلال دموع، لم يكن الموقف يستدعي البكاء ولكن كل شيء يذكرها بجدتها، وكلما تذكرتها، تتذكر حين رأتها ميتة بوجهٍ منتفخ وملامح مشوهة فيعتصر الألم قلبها، ولا حيلة للمتألم غير البكاء.

رآها أستاذ إسماعيل وهو يمر في الردهة من الخلف، لم تخف عليه هيأتها، خفق قلبه واتجه نحوها وقال:

- لمَ تقفين هنا؟! ألم يكن عندك حصة الآن؟

مسحت ود دموعها بكفيها وقالت:

- بلى عندي.

استغرب بكاءها فعقد حاجبيه قائلًا:

- ولمَ تبكين؟ هل أغضبك أحد؟

- لا بل أنا من أغضبت أستاذة هالة وخرجت من الحصة دون إذنها.

قال مداعبًا:

- وتبكين أنتِ؟! يا لجبروتك.

ابتسمت ود وقالت دون أن تنظر له:

- عندما تنتهي الحصة ستأخذني عند الناظر.

- هذا ما يبكيكِ؟

ضحكت قائلة:

- بالطبع لا، ماذا سيفعل الناظر يعني؟ استدعاء ولي أمر! فليفعل.

صمتت قليلًا بينما هو يتأملها وواصلت:

- ربما أنزل الملعب قبل نهاية الحصة من الأساس .. اتقاءً لكل هذا، ليس خوفًا

أشارت لرأسها وهي تتبع:

- وإنما راحة لرأسي.

استند على السور بكفيه وقال:

- أنتِ متمردة.

- لم يكن هذا سيئًا.

- أنتِ استعراضية أيضًا.

نظرت له قائلة:

- ولمَ؟

- تظنين هكذا سيعجب بكِ الرجال.

تفاجأت من هجومه، وقالت:

- أية رجال؟! الفصل فتيات فقط!

- مدرسوكِ.

صمتت متعجبة، فقال:

- تقفين هنا من دون داع .. وتضعين كحلًا، لم تضعينه؟ أنتِ تأتين للمدرسة وليس زفاف صديقتك.

- أعتقد أن هذا هجوم شديد لا مبرر له إلا إذا كنت تغار عليّ مثلًا!

- هو ذاك يا غبية .. أغار.

- وأنا أحبك أيضًا.

قالتها ود باندفاع كأنها تسبه، فابتسم إسماعيل ابتسامةً واسعة وخفق قلبه وتدغدغت حواسه، كان يشعر أنها تعامله معاملة خاصة، ولكنه كان لا يعلم أهي تحبه كما يحبها؟ أم لا؟، أحيانًا كان يشعر أنها تحبه وأحيان أخرى كان يحسب أن الظنون والأوهام يعبثون معه، إذ كيف لحسناءٍ صغيرة مثل ود أن تحب رجلًا على أعتاب الكهولة مثله، سلب الاكتئاب نضارته وجعلته الوحدة باهتًا خاويًا، فشعر في هذه اللحظة التي اعترفت له بها أن روحه رُدت إليه.

*****

صبا

في المساء، ونحن نائمتان في الظلام الدامس، كنتُ أشعر بالأرق والوحدة والحنين لجدتي، ولصالح الذي أتذكره من حين لآخر في نوبات أرقي، فأتمنى لو كان مسلمًا أو أن الناس جميعًا يدينون بدينٍ الإسلام، أشياء كثيرة أفكر بها فلم أستطع النوم، ظللت أتقلب في الفراش أكثر من ساعتين، اللعنة على العقل الذي أفكاره لا تخمد، كانت يد جدتي بها سحر، ما أن تضعها على رأسي وتتمتم بالقرآن والأذكار، أغفو سريعًا وأذهب في نومٍ عميق، السحر الذي كان في يد جدتي هو الأمان وكلام الله، الذي كان يبث في نفسي السكينة والطمأنينة كم أفتقده!

تقلبت على جنبي الأيسر للمرة العشرين تقريبًا فهززت السرير بود فقالت بصوتٍ لم يكن ناعسًا:

- ماذا بكِ؟

اندهشتُ قائلة:

- أنتِ مستيقظة!

- أجل.

- هل هناك شيء يؤرقك؟

- أفكر.

- بماذا؟

- بأستاذ إسماعيل .. لقد اعترف لي بحبه اليوم.

بحماسٍ شديدٍ التفت لها:

- حقًا! متى وماذا قال؟

- حين غادرت حصة اللغة العربية .. حدث حوار كبير مفاداه أنه قال لي أنه يغار عليّ فقلت له إنني أحبه.. يعني أننا الآن في علاقة.

- ومتى سيأتي لخطبتك؟

- لم يقل لي ولكن بالتأكيد بعد انتهائي من الثانوية على الأقل.

- لم يعجبني اعترافك له.. كان يجب أن تتريثي حتى يكمل الاعتراف هو.

- لن تفرق.

هذه ود كما عرفتها دائمًا لا تنتظر أن تقدم لها الأيام والمواقف شيئًا، إنها حين تريد شيئًا تنتزعه من الحياة عنوة، تفعل ما تريد ولا تنظر للمفروض واللا مفروض دائمًا ما أرى جدتي فيها.

*****

في اليوم التالي، أيقظتنا أمي لتناول الإفطار قبل الذهاب للمدرسة، كنا نفطر جميعًا وعبد العزيز معنا، وإذاعة التلفزيون تذيع أغنية أم كلثوم التي نفطر كل يوم وهي تُذاع، فرددت معها ود في هذا اليوم:

"يا صباح الخير ياللي معانا ياللي معانا

الكروان غنى وصحانا

والشمس أهي طالعة وضحاها

والطير أهي سارحة في سماها

يالا معاها يالا معاها يالا معاها

يا صباح الخير يا اللى معانا ياللي معانا"

انتهت ود وقالت مداعبة:

- من صوته أجمل أنا؟ أم أم كلثوم؟

قلت مداعبة:

- لقد ظلمتي نفسك بمقارنتك بأم كلثوم.

قال عبد العزيز:

- ربما يومًا ما تفوقين أم كلثوم مجدًا وشهرة.

ضحكت أنا وود التي قالت:

- أنا أفهم ألا يضع المرء لطموحاته سقف حتى يصل لما يريد ولكن أي مجد وشهرة سأفوق بهما أم كلثوم؟!! وهي تخطت كل حدود المجد والشهرة.

ضحك عبد العزيز قائلًا:

- إذًا ربما تعادلين مجدها.

- لم يكن الغناء من طموحاتي؛ أنا سميعة، فقط أسمع السيدة فيروز، وعمرو دياب، ومحمد منير وأقول "الله" صبا أيضًا صوتها حلو سأترك لها المنافسة بين هؤلاء.

قلت على الفور:

- لا.. أنا سأصبح كاتبة إن شاء الله.

تدخل عبد العزيز قائلًا:

- إذًا ستنافسين العقاد، ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم.

قلت مداعبة:

- وبالنسبة لإحسان عبد القدوس، ويوسف إدريس، ويحيى حقي؟ أنت تذهب بعيدًا بأحلامك.

- ربما، لأنني لم يكن عندي سوى حُلم واحد ثمين وحققته، فأظن أن الجميع إن تمسك بأحلامه سيحققها مثلي.

قلت:

- هذا الحُلم بالتأكيد كان أمي.

ابتسمت أمي بينما قال هو:

- أجل.. حتى عندما تزوجت من أبيكما ظللت متيقنًا من أنني سأتزوجها وأفوز بها يومًا ما

ابتسم وهو يتبع:

- وقد كان.

ربتت أمي على ظهره بحب وامتنان، كان حب عبد العزيز لأمي بالنسبة لي أجمل من قصة حب عنترة لعبلة التي كانت مقررة علينا في الصف الأول الثانوي، ومن قصة روميو وجوليت ومن كل أساطير وقصص الحب التي قرأت أو سمعت عنها، كان يحبها ليس لشيء سوى لأنها هي، هي.

*****

27 يوليو 2008

كانت هناك جلسة في المحكمة خاصة بقضية العبارة، ذهبت مع عبد العزيز للقاهرة ليس من أجل حضور الجلسة، كان لا يهمني الحكم ولا القضية، لا شيء بإمكانه أن يُعيد جدتي لا شيء يساوي شسع نعلها. بل ذهبت معه لزيارة القاهرة مرة أخرى، فقد أحببت صخبها وزحامها ورؤية الحياة وهي تدب بها، كما يليق بفتاة ريفية أبهرتها أضواء المدينة. قال عبد العزيز لود أن تأتي معنا ولكنها قالت "لم يكن لي رغبة" رغم أنها

كانت ترغب كثيرًا في الذهاب معنا، ولكن أستاذنا المبجل منعها أخبرتني بذلك فسببته، دافعت هي عنه قائلة:

- هو يحبني ويخاف عليّ.

قلت بعصبية:

- مِن مَن؟ يخاف عليكِ مِن مَن؟!

- لا أعلم يا صبا .. أنا سايرته بمزاجي، لا أحب أن يفسد يومي بمبرراته.

- نحن في الإجازة ولن يراكِ .. لا تخبريه.

- أخبرته للأسف بالأمس.

كنا في إجازة نهاية العام وتتواصل ود مع أستاذ إسماعيل على الهاتف، ربما دقيقتين أو ثلاث من رصيده في اليوم، نظرًا لغلاء الدقيقة في هذا الوقت،

كانت الهواتف المحمولة في بداية انتشارها، وجلب لنا عبد العزيز هاتفين طراز "نوكيا 3110" من أتعاب قضية ربحها، كنا من الفتيات الأوائل في قريتنا نمتلك هاتفًا،

بعد نقاشٍ طويل مع ود ذهبت وحدي مع عبد العزيز، ومرة أخرى من نافذة القطار شاهدت النيل، وخيوط الشمس تلمع به، والأراضي الزراعية مبسوطة جواره، تحفها أشجار التوت والنخيل، ولكن هذه المرة ليس كمتعة المرة الأولى، كان عقلي يعج بالأفكار، وأتناوب بين الشرود والنوم، حتى وصلنا دخلت المحكمة مع عبد العزيز؛ لأحضر الأجواء التي كنت أشاهدها في التلفاز دائمًا، قفص متهمين، حضور الأهالي، صحافيون كُثر

ممسكون بعدساتهم، تعلو الأصوات فيمسك قاضي مطرقته يطرق طرقتين ويقول "سكووووت"، بدأت الجلسة يترافع الدفاع وبعدها يتناقش القضاة، شعرت بالملل والفتور.

في الاستراحة، انسحبتُ بهدوء بعدما أخبرت عبد العزيز عن المكان الذي سيجدني به، خرجت من المحكمة وسرت في شارع 26 يوليو، والشوارع الجانبية أتأمل البنيان، والناس، والسيارات.

كنت أندهش كلما رأيت امرأة تقود سيارة، أو امرأة على مقهي تدخن، أو امرأة تقود دراجة هوائية، ولكن أكثر ما أدهشني وأثار انتباهي كان "حامل الخبز"؛ شاب يقود دراجة هوائية ويحمل فوق رأسه قفص مستطيل طويل من الخبز يقود بيد واليد الأخرى تمسك بقفص الخبز، كيف يتحكم بالقيادة في هذا الزحام بيدٍ واحدة؟!! ويضبط زوايا رأسه بين مراقبة السيارات والمارة والنظر في الطريق الذي يسير فيه، دون أن ينقلب القفص من فوق رأسه؟!

ظللت أراقب الشاب حتى غاب عن ناظري وابتلعه الطريق، مشهد غير منطقي البتة ولكن ربما يوافق قوانين الفيزياء.

عدت للمحكمة، سمعت صوت جلبة وضوضاء بالداخل وهتافات لم أفسرها، رأيت شابًا عشرينيًا طويل القامة، ولكنه نحيف يخرج من القاعة وتجاعيد جبهته تنبئ عن شدة غضبه وانزعاجه، كنت أريد أن أسأله عن ما يحدث بالداخل، ولكني تراجعت حتى لا يلكمني في وجهي وسيكون معه

الحق، نظر لي هو، كأنه يبحث عن أحدٍ ليقص له لتهدأ ثورته، ارتبكت فقلت:

- ماذا يحدث بالداخل؟

- تمت تبرئة المتهمين.

- حتى ممدوح إسماعيل؟

- أجل وهذا ما جعل الأهالي تثور وتعترض على الحكم.

- ألك ضحية في العبارة؟

- أبي من المخطوفين .. كان أحد أفراد طاقم السفينة.

استغربت كلمة "المخطوفين" وبدا هو عليه الحماس والحسرة وهو يواصل:

- لقد رأيته بأم عيني في التلفاز أثناء عرضهم "لفيديوهات" الناجين الذين تم إنقاذهم، وأحد أصدقائه بلغنا بمكانه في مستشفى الغردقة بالدور الثالث، وعندما ذهبنا للمستشفى لم نجده، سألنا أحد الأطباء فأخبرنا أن اسمه كان بالفعل مدرجًا عندهم ضمن الناجين، واقترح علينا أنه ربما ذهب للبيت أو لأحد أقاربه؛ لأن حالته الصحية كانت جيدة، ولكنه حتى الآن منذ عامين ونصف لم يعد ولم نعثر على أي خيط يدلنا عليه.

بدت القصة أسطورية، فعقدت حاجبيَ قائلة:

- ومَن مِن مصلحته إخفاؤه؟

- لا أعلم.. ولكن هناك لغز ما، لأن ليس من المنطقي أن يلتقي أناس من القاهرة، وأسوان، والبحيرة، والإسكندرية، والفيوم، وكثير من المحافظات لأول مرة، ويجمعون على أنه تم اختطاف ذويهم، الكثير رأوا

ذويهم في التلفاز مع الناجين وقرأوا في الجرائد أسماءهم في قوائم الناجين ولم يعثروا عليهم حتى الآن.

- هذا غريب حقًا.

سألني:

- وأنتِ ألكِ ضحية في هذه العبارة المشؤومة؟

لم ينتظر إجابتي وأسرع بقوله:

- يبدو أن لا.. لا يبدو عليكِ الاستياء من الحكم.

قلت بابتسامة ساخرة:

- جدتي من الغرقى .. ولكن إذا رأيت حبل المشنقة حول رقبة ممدوح إسماعيل والمتهمين، هل ذلك سيعيد جدتي؟ أو يخمد نار قلبي!

- أجل سيشفي غليلك قليلًا على الأقل .. هؤلاء المجرمين لا بد أن يذيقوا بعض ما جنته يداهم.

- لا شيء من الأهوال التي رأتها جدتي ومن معها من الضحايا وهم يصارعون الموت بين قروش البحر الأحمر، والجوع، والعطش، والظلام، والرعب يعادل أي حكمٍ بالإعدام، لا شنقًا ولا رميًا بالرصاص؛ لذا لا يهمني الحكم.

- لا أوافقك.

لم أرد وانتهى الحوار بيننا، هممت بالمغادرة، ففتحه ثانيًا وقال:

- لم أعرف اسمك.

- صبا.

عرَف نفسه دون أن أسأله:

- إبراهيم من الحلمية.

ذكّرني اسمه بخالي إبراهيم الذي لم أره سوى في صوره، ولكني عرفته جيدًا من حكايا جدتي، فقلت:

- أهلًا بك.

- ولكن هناك أمر محير بالنسبة لي.

- ما هو؟

- طالما أن الحكم لن يفرق معك.. لماذا أتيت؟

- "عبد العزيز أحمد" زوج أمي محامي عائلة، جئت معه من بني سويف زيارة للقاهرة وليست للجلسة.

أومأ برأسه قائلًا:

- على كل حال تشرفت بك.

- وأنا أيضًا.

قلتها وغادرت من أمامه، انتظرت حتى خرج عبد العزيز من وسط الهتاف والفوضى، كان يبدو عليه الاستياء ولكنه قال:

- هيا نشرب عصير قصب، لقد جف حلقي في هذه الجلسة.

اتجهنا إلى العصارة التي تجاور المحكمة، وهناك قال مستاءً:

- ما حدث اليوم مهزلة كبرى.

- علمت أنه تمت تبرئة جميع المتهمين.

- أجل.. والمثير للسخرية أنهم حكموا على قبطان عبارة سانت كاترين بالسجن ستة أشهر وغرامة عشرة آلاف جنيه.

- وما علاقته بالقضية؟.

- تقاعس عن إنقاذ الضحايا رغم قربه منهم.

- يا له من حيوان!!.

- والقضاة حيوانات مثله، استندوا إلى أسبابٍ تافهة وغير مبررة.

صمت قليلًا واستدرك:

- تصوري أنهم رفضوا الاستماع إلى شهادة لجنة تقصي الحقائق التي شكلها مجلس الشعب!

لم أعرف بماذا أرد على ما لا أفهمه، فهز عبد العزيز رأسه يمينًا ويسارًا وهو يقول:

- مهزلة.. بل فاجعة.

- قلنا لك.. أننا لا نهتم بالقضية، لما تقحم نفسك فيما يزعجك؟.

- هذا خطأي بالفعل إنني أردت تحقيق العدالة في بلدٍ كهذه .. الفساد بها يصل للنخاع.

شربنا العصير وقال:

- أعرف أنك تحبين النباتات، كنت أريد أن آخذك لحديقة الأورمان، ولكني في مزاج لا يسمح لي بشيء فاعذريني .. ولكني سأعوضك.

- لا عليك.. أقدر ما أنت فيه.

عدنا للبيت، كان عبد العزيز يشعر بالهزيمة، ربما هذه هي ضريبة أن يؤمن الإنسان بإحدى القضايا.

كان عبد العزيز يؤمن بقضية إنصاف المظلومين وإعادة الحقوق لأصحابها، لم يكن محاميًا لأجل المال بل لأجل الإنسانية.

صحيح أن هذا الإيمان يجعل لحياته معنى، خصوصًا حين يتحمل المشاق لأجله كأن يذهب للقاهرة في ثلاث ساعات بالقطار من أجل جلسة ما، أو أن يسهر يذاكر ملفات قضية، ولكن حين تكرس حياتك هكذا لأمرٍ ما ثم تخفق يصبح الشعور بالهزيمة قاسيًا، كمشجع كرة القدم الذي ذهب إلى "الاستاد" وشق الزحام وطال وقوفه لأجل أن يشاهد فريقه وبالنهاية خسر، فمقابل التشجيع والشغف والمتعة أثناء المباراة لقي المشقة في تكبد خسارة فريقه؛ هذه هي معادلة الحياة من أجل أن تستمتع بشيء لا بد أن يجرحك بعض شوكه.

أما أنا، فكنت أشعر بالخواء وفراغ الحياة من المعنى، وهذا أيضًا ضريبة ألا يؤمن الإنسان بقضية؛ فأن يكون هناك شيء يكدر عيشك ويعكر صفوك أفضل من أن تعيش بلا هدف على كل حال،

لم أستطع شرح الأمر جيدًا فالحياة معقدة جدًا، لا يحل تعقيدها سوى النجاة منها سواء بالحب أو بالموت.

*****

1 سبتمبر 2008

اليوم الأول في شهر رمضان، تجمعنا حول المائدة نأكل ثلاثة أصناف من المحشو "باذنجان أبيض وفلفل وكوسة" وبطتين ذبحتهما أمي من خلف الدار، كعادة المصريين في اليوم الأول من رمضان لا بد أن تحتوي المائدة على صنفين، على الأقل من المحشو، سمعنا أذان المغرب فتهافتنا على شرب الماء بعد قول دعاء الإفطار ودعاء كل منا ما شاء.

أثناء رفع كفينا للدعاء قالت ود:

- لا تنسوا الدعاء لجدتي.

عادة اليوم الأول في الصيام يكون شاقًّ والعطش شديد، ثم تتأقلم أجسامنا شيئًا فشيئًا فيصبح الصيام أخف وطأة، فقالت أمي موجهة حديثها لنا جميعًا:

- لا تشربوا كثيرًا حتى لا تشبعوا وتتركوا الطعام.

استمر عبد العزيز يتجرع الماء فأخذت أمي الكأس من أمام فمه برفقٍ قائلة:

- كفى.. ستشبع، ما زال هناك عصير.

قالت ذلك ووضعت أمامه كأسًا من عصير البلح المجفف ثم أمامنا، كنت أحب مظاهر حب عبد العزيز وأمي لبعضهما وأراقبها دائمًا، عم الصمت حتى اخترقته ود وقالت:

- سأتابع كرتون "سنوحي" فقد أحببت أغنيته.

قلت:

- وأنا أيضًا.

بعد الإفطار بينما نتناول حلوى الكنافة والقطايف، تذكرت إبراهيم الذي عرفني بنفسه وأخبرني أن أبيه من المخطوفين، فقلت لعبد العزيز:

- هل صحيح أن هناك ضحايا اختطفوهم؟

رد قائلًا:

- لا أعلم إجابة شافية .. الأمر غير مؤكد قد يكون حدس أهل الضحايا يؤمن بذلك لصعوبة تقبل وفاة ذويهم وقد يكونون على صواب؛ لأن معظم المختطفين من طاقم العبارة، هناك عائدون اختطفوا أيضًا ولكن قليلين بالنسبة لعدد الطاقم.

طال حديثنا في هذا الموضوع ومواضيع عدة، كان لنا حديثًا معًا يوميًا، لعبد العزيز ثقافة ورأي دائمًا ما يعجباني فكان يوسع مداركي ويفتح لي آفاقًا جديدة، من الحديث في العلم والدين والسياسة والأساطير وكل شيءٍ تقريبًا.

أصبحت أفكر في إبراهيم من حينٍ لآخر لا أعلم لما، كنت بحاجة لتجربة تنسيني تجربة صالح التي أرهقتني وأخذت الكثير وقتي وروحي.

*****

فبراير 2009

يقول الراوي

تعاقبت الأيام، وتوطدت علاقة ود بأستاذها إسماعيل، تعلقت به واستطاعت أن تجعله موهًا بها، فكانا يتصيدان أي مناسبة تجعلهما يتحدثان دون ريبة، جعلها إسماعيل وسيطته بين الطالبات، تجمع منهن أجر الدرس الذي يعطيه إياهن عقب المدرسة، تبلغهن بأي جديد يطرف،

ولكن العلاقة كانت غير متكافئة؛ إذ كان إسماعيل كبيرًا وقورًا، ولم يعجبه بعض تصرفات ود التي كان يراها طفولية شديدة الحمق، أحيانًا كان يعنفها أمام زميلاتها بكلامٍ جارح لم تقوَ ود على رده احترامًا له ويعتذر منها وحدهما، أي كان عذرًا بلا قيمة،

لم يكتف بنقده لتصرفاتها بل أراد أن يغير أسلوب حياتها، جعلها مطيعة، منعها من طلوع الإذاعة،

وبسبب التفات أنظار بعض المدرسين أصدقائه إليها، أجبرها بسيف الحب والتعلق على ارتداء النقاب فارتدته عن كرهٍ وهي صاغرة.

إذ كان دائمًا في حديث المدرسين حول الفتيات يذكرون ود، وكان إسماعيل شديد الغيرة عليها، في كل مرة كان يذكر أحدهم ود أمامه كان يستشيط غضبًا يستميت في كبحه ومدارته.

كل ذلك جعل العلاقة بينهما متوترة كالمد والجزر، ود عنيدة وهو مهووس بحب السيطرة، فرضت مهنته عليه ذلك.

ذات يوم، كان ينظر من النافذة إلى ملعب المدرسة فوجدها تركض خلف زميلتها وتضحك بصوتٍ مرتفع، لم يتمالك نفسه فنادى عليها، صعدت له مكتبه فقال فور دخولها:

- متى ستكفين عن التفاهة؟ ألم تعقلي بعد؟!

باستغرابٍ قالت:

- ماذا فعلت؟

- تتصرفين وكأنك في السابعة من عمرك، هل يليق بمنتقبة الركض والضحك بصوت مرتفع هكذا؟!

- يليق بطالبة ثانوية.

- حتى بطالبة ثانوية لم يلق.. كفاك قلة أدب.

- أنت تدمر علاقتنا .. لما تتعامل معي هكذا؟

رقق صوته:

- لأني أحبك.

لانت لهجتها:

- هذا لم يكن حبًا، أتتذكر المقولة التي قلتها لك "خاطبوا الناس على قدر عقولهم؟" لما لا تخاطبني على قدر عقلي وعمري؟

- ولما لا تفعلي أنت ذلك؟

جزت على أسنانها ونظرت جوارها بضيق، ثم عاودت نظرها له قائلة:

- لا أحب الجدال.

طار كف إسماعيل على وجه ود، التي برزت عيناها اندهاشًا وصدمة، لم تعرف بماذا ترد فأخذت دفتره مزقته وألقته في الأرض وغادرت تاركة إياه مذهولًا من تصرفه وتصرفها.

*****

عادت ود من المدرسة صحبة صبا لم تتكلم كأنها تمثال إغريقي، تومئ برأسها فقط لحديث صبا حتى أن كان الحوار لا يستدعي الإيماءة، عقدت صبا حاجبيها قائلة:

- ما بك يا ود؟

أومأت لها برأسها يمينًا ويسارًا دون أن تتكلم، وعندما دخلت بيتها لم ترفع النقاب، ولم تلق التحية على أمها، ولم تسأل عن عبد العزيز كعادتها، بل دخلت حجرتها بدلت ملابسها ونامت، استغربت آمال فسألت صبا:

- ما بها ود يا صبا؟ لم تتكلم، ويبدو أنها منزعجة من شيء ما.

- لا أعلم .. سألتها لم ترد عليَّ.

- يبدو أنه حدثٌ جلل.

- أجل، فلنتركها نائمة، لا داعي للدروس اليوم عسى أن تستيقظ بحالة أفضل.

تمتمت آمال بالدعاء لود، وانشغلت في أعمال البيت، وانشغلت صبا في روتين يومها وذهبت للدرس بمفردها، ولكنها لم تستفد شيئًا من الحصة إذ أن عقلها لم يكن حاضرًا، كان مشغولًا على أختها.

عادت في المساء، وجدت ود تحتضن قطتها وتبكي، اليوم فقط فاقت ود من المخدر كأنها أجرت عملية جراحية وذهب الخدر وبقي الألم، الآن فقط ذهب المخدر وعاد لها إدراكها، أن جدتها ماتت حقًا وإنها لم ترها للأبد. كانت تشعر بالإهانة الشديدة، ما زالت ذاهلة، لم يجرؤ أحدٌ من قبل على إهانتها وقهرها، أشفقت على نفسها فانهمرت دموعها كبركانٍ انفجر لتوه. شعرت بألم فراق جدتها يدغدغ عظامها ويسحق قلبها، كيف يجرؤ أحد على صفعها؟

ذلك لم يكن ليحدث أبدًا في حياة جدتها، التي ربتها على عدم السماح لأحدٍ بالنيْل منها، إن كانت حية كانت ستذهب تهشم يده التي صفعتها، أبت نفس ود تقبل الإهانة، عندما سألتها صبا بقلق:

- ماذا بك يا ود؟ أخبريني.

تركت ود قطتها وصرخت قائلة:

- أريد جدتي .. أريد جدتي الآن.

جاءت آمال وعبد العزيز مسرعين على صوت بكاء وصراخ ود، ألقت صبا على رأس ود الحجاب لوجود عبد العزيز، فنزعته ود وقذفته، سألتها آمال بهلع:

- ما بك يا حبيبتي؟ ماذا حدث.

- أريد جدتي.

تدخل عبد العزيز:

- ما يبكيكِ؟

- أريد جدتي.

لم ترد ود سوى بذلك، قال عبد العزيز:

- أنتِ تعلمين أنها ماتت.

صرخت قائلة:

- ولكني أريدها.

قالت صبا:

- هل ضايقك أحد بالمدرسة؟

لم تجب ود وانسابت عبراتها، واصلت صبا:

- من ضايقك؟

من وسط انهيارها أجابت بصوتٍ منكسر:

- أستاذ إسماعيل.

- ماذا فعل؟

انتظر الجميع الإجابة التي بعد طول صمت أجابت بها ود:

- صفعني على وجهي.

- لماذا؟

قالت آمال، وود لم ترد، فأعادت صبا السؤال مرة أخرى:

- لماذا؟

- لم تعجبه تصرفاتي.

استغرب عبد العزيز قائلًا:

- وما شأنه؟

صمتت صبا مرتبكة، فقالت ود:

- أنا على علاقة به.

صُدم الجميع وفغر فاه آمال وضربت بيدها على صدرها وهي تشهق، حتى صبا التي كانت تعرف صدمت من بوح أختها بأمر كهذا، قالت آمال:

- هذه آخرة تربيتي، على علاقة بأستاذك؟!

أشار لها عبد العزيز، بمعنى أن هذا ليس وقتًا جيدًا للعتاب وقال لود:

- اهدئي، سوف أذهب له غدًا المدرسة وأتحدث معه، سأجعله يندم على ما فعل.

جلست صبا جوار ود على السرير وضمتها لحضنها، وظلت تمسح على شعرها حتى هدأت، أما آمال فكانت في حالة غضبٍ من ابنتها وعليها، ظلت طوال الليل مستيقظة تفكر، تقول في نفسها كان يجب أن تكون بشدة أمها، حتى لا تجلب إحدى ابنتيها لها العار، كان يجب أن تكون حازمة معهما أكثر من ذلك، كان يجب أن لا تعلمهما من الأساس وتزوجهما، وكثير من الكان يجب أبقوها مستيقظة حتى الصباح، فأيقظت عبد العزيز ليذهب للمدرسة، قالت له فور إيقاظه:

- لم أستطع النوم، لا بد أن يعاقب هذا المدرس بالفصل أو النقل، لا أريد لابنتي أن تراه مرة أخرى.

قال عبد العزيز وهو يفرك عينه:

- اهدئي .. سنرى حلًا.

- الحل أن يفصل هذا المدرس أو أن تترك ود التعليم، لا حل ثالث.

نهض عبد العزيز من السرير وهو يقول:

- اعقلي يا آمال، وانزعي حل أن تترك ود التعليم من رأسك؛ إنها في آخر سنة لها في الثانوية العامة ومجموعها الذي سيضاف عليه مجموع هذا العام ربما يؤهلها لكلية الطب.

- وليكن.

- سأحل الأمر بمعرفتي.

- لا أريد أن يعلو صوتكما أو تتشابكان فيعرف أحد بالمشكلة، ويذاع أن ود على علاقة بأستاذها.

لم تعرف آمال أن الكثير يعرف ذلك أصلًا، ربما الجميع.. لا يخفى عن المدرسين والفتيات اجتماعهما الدائم واختياره لها في كل شيء ونظراتهما لبعضهما، الجميع يتحدث ويتهامس عن هذه العلاقة ولكن طرفيها وصبا لا يصلهم شيئًا من هذا الحديث، يمر على الجميع ويستثنيهم، هذا دأب الحب، أي سر يمكنه أن يخفى ولكن الحب دائمًا يفصح عن نفسه.

فقال عبد العزيز:

- اطمئني .. لست متهورًا.

قالها وذهب لدورة المياه.

ماذا فعلت الأيام بآمال؟ وماذا أحدث فيها الألم؟! ألم القمع والإهانة، والفراق والفقد، أصبحت تشبه أمها كثيرًا، لم تعد المرأة الضعيفة التي يتعثر لسانها في الحديث وينال منها كل شيء، الألم يحوّل الإنسان ويغيره، يجعله إما

قاسيًا، أو لينًا، ومنكسرًا عكس ما كان عليه.. أو ربما هي الأمومة التي تحول الأم إلى وحشٍ ضارٍ عندما يمس أحد صغاره بسوء.

*****

غابت صبا وود، وذهب عبد العزيز قاصدًا أستاذ إسماعيل، الذي أدخله أحد الأساتذة في مكتبه، فجلس عبد العزيز ينتظره حتى جاء ووقف حياه معرفًا نفسه "عبد العزيز زوج أم ود وفي مقام والدها"، رد التحية إسماعيل وأشار له بالجلوس، وجلس أمامه على المكتب في توترٍ جلي منتظرًا ما سيقوله عبد العزيز، الذي قال في حرج:

– ود انهارت أمس لأنك صفعتها على وجهها، ظلت تبكي وتصرخ وكانت في حالة انهيار تام.

ابتلع إسماعيل ريقه وقال:

– ألم تخبركم أنها مزقت دفتري؟!

– لا، أخبرتنا أنها على علاقة بك.

انعقد لسان إسماعيل، ماذا فعلتِ أيتها البلهاء كيف تبوحين بسرٍ كذلك؟!، لن تكبري أبدًا، هكذا فكر في حين واصل عبد العزيز يعاتبه:

– لا أعرف كيف لذلك أن يحدث، إن كانت على علاقة بشاب في عمرها لم أكن لأعتب عليه؛ فهو مراهق متهور على كل حال، أما أنت الكبير الناضج فكيف يصدر منك ذلك؟!!.

خجل إسماعيل، لم يعرف بماذا يرد، وضعته ود في زاوية ضيقة، بعد طول صمت قال:

- أنا أحبها حقًا وأريد أن أتزوجها.

- ولما لم تطرق باب بيتها من البداية إن كان كذلك؟!

- ها أنا أطرقه، هذا طلب رسمي مني ليد ود.

صمت عبد العزيز قليلًا لم يجد إجابة تسعفه، فقد رأى أن إسماعيل لا يناسب ود مطلقًا، من حيث العمر والشخصية، أدرك ذلك من تفصيلٍ دقيقٍ جدًا عندما وضع يده في يد إسماعيل قبل قليل يحيه، لم يحييه إسماعيل تحية عادية بل قلب كفه للأسفل جاعلًا كفه للأعلى في وضع السيطرة، كما قرأ في كتاب لغة الجسد الذي كان قد جلبه لصبا، وهو يعلم أن ود عنيدة صعبة المراس لا تحب السيطرة والتسلط، ومن خلال تجربته في الحياة يعرف أن أهم شيء يحافظ على الحب تناسب الطباع، إذ كان هو وآمال غير متكافئين البتة هو متعلم مثقف، وهي غير متعلمة ومعرفتها محدودة ولكن طباعهما تآلفت، فتنحنح قائلًا:

- الحقيقة إنني أتيت لشيء آخر، ود عند وفاة جدتها دخلت في حالة اكتئاب صعبة، وخرجت منها بأعجوبة العام الماضي وذلك أسعدنا كثيرًا، ولكن بصفعك لها هدمت كل شيء، فأنا أتيت لأجل عتباك، لا أعرف ماذا أقول لك ولكن أمها مستاءة جدًا وهي أيضًا ولا أظن أنهما ستوافقان. لا يعرف إسماعيل ماذا يقول ولكنه يحبها بشدة، فلم يجد أمامه مفرًا من الاعتذار الثقيل على نفسه فقال مترددًا:

- أنا آسف حقًا.

صمت قليلًا وواصل:

- وأريد القدوم لأعتذر لود أمامكم جميعًا ولأمها.

نهض عبد العزيز قائلًا:

- سأخبرهم بذلك.

قالها وغادر دون أن يودعه.

*****

صبا

عاد عبد العزيز للبيت وأخبرنا بما حدث، كانت أمي تنتظره على أحر من الجمر، تريد أن تسمع منه أن هذا المدعو إسماعيل سينتقل لمدرسة أخرى، ولكنه قال أنه يريد أن يطلب يد ود رسميًا فقالت أمي باندفاع:

- على الله يعتب هذه الدار.. سألقنه درسًا لم يأخذه في حياته.

ولكنها بالنهاية أم وأكبر سعادتها أن تزوج ابنتها، فاستدركت بتردد:

- كم عمره هذا المدرس؟.

- يبدو أنه في بداية الأربعين أو منتصفها.

أجاب عبد العزيز، فارتفعا حاجبيَّ أمي دهشة وفغر فاها، وقالت:

- أربعون؟! أسمعتُ صحيح؟

أومأ عبد العزيز قائلًا:

- أجل.

- يالبجاحته!! قل له أن ينسى هذا الموضوع تمامًا، أما ود فلن تذهب للمدرسة سوى في الامتحانات.

كانت ود جالسة حزينة عاقدة حاجبيها وتسمع بصمت، وأنا أعرف أنها متعلقة به كثيرًا ولربما يكون لها رأي آخر فقلت:

- ولكنك لم تأخذِ رأي ود يا أمي.

كان بجوار أمي كأسًا به قليلًا من الماء، قذفته ناحيتي لم يصبنِ تفاديته بفزعٍ شديدٍ، لم أعهدها كذلك أبدًا، قذفته وهي تقول:

- عمره أكثر من الأربعين وتقولين تأخذي رأي ود.. قصف رقبتك أنتِ وهي، أتعلمين ماذا سيحدث إن تزوجته؟، ستكرر مأساتي مع أبيكما، فقد كان يكبرني كثيرًا هكذا واستضعفني.

قال عبد العزيز بصوتٍ حاد:

- آمال ماذا جرى لكِ؟ اهدئي قليلًا.

لم تتكلم ود، بل نهضت دخلت حجرتنا، عادت أمي ما فعلته جدتي معها تمامًا، حرمتها جدتي الزواج من عبد العزيز في البداية؛ لأنه فقير وكانت هي تعاني الفقر الذي غرّب ابنيها، فرفضت أمي زواج ود من إسماعيل؛ لأنه يكبرها بكثير كما كان أبي يكبرها وكانت تعاني من فظاظته وتجبّره، وهذا وضح لي أن كل يقيس حياة الآخرين بناء على تجربته، إن كنت عالمة اجتماع كانت الحياة في بيتنا ستفيدني كثيرًا.

*****

دخلت عند ود الحجرة، وأنا في طريقي لها أخذت خوخة معي؛ فهي تهدئها وتجعلها في مزاجٍ أفضل.. جلست جوارها على السرير وأعطيتها لها وقلت:

- ما رأيك بطلب أستاذ إسماعيل؟ أعتقد أنك كرهتيه لأنه صفعك أليس كذلك؟

قالت وهي تمسح على ظهر خوخة وتنظر أمامها:

- لا.. ما زلت أحبه.

- ظننتك لا تريدين سماع اسمه حتى.

- أنا غاضبة منه كثيرًا ولكني أحبه، كموقفك الآن من أمك هل كرهتها لأنها قذفت عليكِ الكأس؟ أم فقط غضبتي؟

- لم أغضب من الأساس .. أشعر أنني استفززتها ولكن ذلك كان لأجلك.

- أنا أيضًا استفززت إسماعيل.

- بل هو من يستفزك، طالما أنه لم يعجبه أسلوب حياتك لمَ استمر في العلاقة؟ كل يوم يغير فيك شيئًا جديدًا، قريبًا لم أعد أعرفك، انتبهي يا ود أنك تقعين في شراك أسطورة سرير بروكرست التي قصها عليَّ عبد العزيز قبل يومين.

نظرت لي ود منتظرة أن تعرف ما هي تلك الأسطورة التي تمثل علاقتهما، فقلت:

- يقول أن بروكرست كان حدادًا يعيش في أتيكا، يستدرج ضحيته ويضيفه ويكرمه، وبعد ذلك يخبره أنه عنده سرير عجيب طوله دائمًا يلائم مقاس

النائم عليه أيًا كان طوله، فينتاب الضحية الفضول لرؤية هذا السرير وإذا ما اضطجع عليه يجربه، يربطه بروكرست بإحكام وإذا كان الضحية أطول من السرير يبتر ساقيه وإذا كان أقصر مط أطرافه وفسّخها ليجعله يلائم السرير تمامًا وهذا ما يحاول إسماعيل فعله معكِ؛ أن يجعلك تناسبين أفكاره وأسلوب حياته ويفني شخصيتك في شخصيته.

*****

الأربعاء 15 يوليو 2009

هذا اليوم أذكره بالتاريخ واليوم والساعة، يوم ظهور نتيجة الثانوية العامة، تقيأت مرتين من شدة توتري، لا بديل عن كلية الطب في رأسي، ثلاث سنوات أعد نفسي لهذا اليوم، أحرم نفسي من متعٍ كثيرة، كمشاهدة التلفاز واللهو والقراءة لأجل متعة هذا اليوم، كانت الساعة الثانية عشر صباحًا ذهب عبد العزيز عند أقرب (سايبر) من الدار.. غاب كثيرًا، وأنا القلق والتوتر كانا قد أقاما حفلًا في جسدي ويقرعان الكؤوس نخب فزعي، بينما ود لم تكن تكترث، منذ منعتها أمي من الذهاب للمدرسة حتى لا ترى أستاذ إسماعيل، أهملت دروسها ومذاكرتها نكاية في أمي، تخلت عن حُلم كلية الفنون الجميلة وخلعت النقاب وزهدت في كل شيء عدا شوقها لجدتي الذي كان يزداد يومًا عن يوم، جاء عبد العزيز أخيرًا،

قال:

- أبشروا.

ركضت نحوه نزعت الورقة التي مدون بها درجاتنا من يده، قالت أمي:

- لمَ تأخرت هكذا؟

- المواقع كانت مزدحمة والضغط عليها أصابها بالشلل.

لم أسمع أي شيء بعدها من حوارهما، نظرت في درجاتي أنقص في اللغة العربية درجتان، ودرجتان في بقية المواد.. المجموع الكلي 406 من 410 نسبتي المئوية 99 وكسور، تنفست الصعداء وهدأت ضربات قلبي، نظرت في درجات ود وحسبت نسبتها المئوية 94، قالت أمي:

- بشريني.

قلت بسعادة عارمة:

- طِب يا أمي.. سوف أدخل كلية الطب إن شاء الله.

أطلقت أمي زغرودة وعانقتني وهي تقول:

- مبارك يا حبيبتي، مبارك.. وود ماذا فعلت؟

- ربما صيدلة .. أو فنون جميلة كما كانت تريد.

أخذت ود الورقة من يدي وهي تقول:

- كم حصلت؟.

أجبتها:

- 94.

زغردت أمي مرة أخرى وعانقت ود التي قالت ببرود لا يناسب الموقف تمامًا:

- جيد ظننت سأحصل على أقل من هذا.

في صباح هذا اليوم قالت لي ود:

- أريد هاتفك.

كانت قد تركت هاتفها لأمي بكيفها حتى لا تشك أمي أنها ما زالت تحدث أستاذ إسماعيل وهكذا، سألتها:

- لمَ؟

- سأهاتف إسماعيل بالتأكيد يريد أن يعرف كم حصلت.

- رغم أنني لا أرى فائدة من هذا، ولكن ستجدينه أسفل وسادتنا.

أخذته ود وتحدثت إلى أستاذ إسماعيل أخبرته كم حصلت، قال لها أنه اشتاق لها كثيرًا ويريد رؤيتها بأي شكلٍ كان، قالت له ود أن ينتظرها في الأرض التي خلف المدرسة عشرة دقائق وستكون هناك، قصت عليَّ تلك المكالمة السريعة فنصحتها أن لا تذهب بالطبع، قالت:

- لن أتأخر.. سأسلم عليه وأعود، لن يشعر أحد بغيابي.

ارتدت عباءتها وخرجت، رغم رفضي للفكرة، بعد ربع الساعة جاءت تلهث دخلت لحجرتنا، كنت أكنس الدار فتركت المكنسة والجاروف، ودخلت خلفها لأعلم بفضولي المعتاد ماذا كان اللقاء ولكني وجدتها جالسة على السرير في حالة خوف، تضع كفها على صدرها لتنظم أنفاسها، فقلت باستغراب:

- ماذا بك؟

واصلت بغضبٍ:

- بالتأكيد إسماعيل أفندي عنفك على خلعك للنقاب.

تنفست الصعداء وقالت:

- ليته كان كذلك.

- إذًا ماذا حدث؟.

- ابن مسعود وبعض الصبية رأونا وقذف أحدهم علينا حجر، أصاب رأس إسماعيل ونزف، اضطررت أن أتركه وبينما أغادر مهرولة قال ابن مسعود سأخبر أبوكِ بذلك، إذا كانت أمك لم تستطع أن تربيكِ فليأخذك هو.

شهقتُ ووضعت كفي على فمي لا إراديًا وقلت بصوتٍ منخفض:

- ما كان ينبغي أن تخرجي في تلك الساعة.

جاء صوت أمي من الخارج:

- أنتِ يا صبا هانم .. لمَ لا تكملي الكنس وأين ود.

- قادمة يا أمي .. قادمة.

رددت عليها بذلك وقلت لود:

- ماذا سنفعل؟ بالتأكيد البلدة كلها الآن لا تتحدث إلا في هذا الموضوع.

- لا أعلم.. لا أعلم أي شيء.

لأول مرة أرى ود بهذا الخوف والهلع، تركتها وعدتُ لأستأنف الكنس، لأتفرغ معها للتفكير.

لم أنتهِ من جميع الحجرات، وتنظيف قن الدجاج، وسمعت طرقات قوية على الباب، لم أخمن من هذا ولمَ يطرقه بهذه الطريقة، هذا أبي قد وصله الخبر، كان الباب مواربًا فلم ينتظر أن يفتح له أحد بل دخل بجلبابه يسبقه كرشه المدلي أمامه، كثورٍ هائج هرب من عنبره للتو وهو يقول:

- أين الفاجرة مقصوفة الرقبة؟.

وضعت الحجاب الملقى على كتفي للطوارئ، على رأسي تلقائيًا كأنه غريب، أرعبتني هيأته فقلت بلجلجة:

- من تقصد؟

زاحني من أمامه وهو يقول:

- أين ود.

- إنها نائمة.

جاءت أمي التي كانت تفرد الكشك في صينية فوق السطح ليتشمس، فقالت:

- ماذا يحدث؟.

- لا تعرفين ماذا يحدث؟ ابنتك كانت مع أستاذها خلف المدرسة يقبلها والبلد كلها تتحدث وتقولين ماذا يحدث؟

ضربت أمي على صدرها وهي تشهق، فواصل أبي:

- طبعًا تزوجت وتركتِ بناتك يدوران على حل شعرهما مثلك.

لم يكن عبد العزيز بالدار وأمي وحدها لم تستطع مواجهة هذا الثور، فقالت:

- ماذا تريد يا سيد؟

دفعها بقوة فسقطت أرضًا وهو يقول:

- أريد أن أقتلها وأقتلك لو أستطيع.

تكرر المشهد مرة أخرى، في هذه اللحظة تذكرت حين عُدت من المدرسة وأنا صغيرة وركلها ركلة كادت على إثرها أن تفقد حياتها، ركضت نحوها وأنا أقول بهلعٍ:

- أمي.

ساعدتها على الوقوف ونفضت لها جلبابها، لم تستطع ود الاختباء أكثر من ذلك فخرجت من الحجرة ممسكة بقُلة وهي تقول باكية:

- أقسم بالله ما قبلني ولا مسني هذه بهارات الناس، ولكن حتى إن حدث هذا ما لك ولي ها؟ ألم تتركني وأنا قطعة لحم وتنصلت من كل شيءٍ يخصني؟ حتى بعد أن طلقت أمي لم تسأل عنا يومًا وكأننا لسنا بناتك حرمتني كل شيء يمكن أن يقدمه الأب لابنته، جعلتني أبحث عن العاطفة في أشخاصٍ مرضى مثلك، كل ما يربطني بك هو اسمك، فليس من حقك أن تغضب، أنا لا أعتبرك أبي من الأساس، أنا كالزرع الشيطاني أتفهم. مسحت عبراتها وأنفها بكمها وهي تواصل:

- قسمًا بالله إذا مسست أمي بسوءٍ مرة أخرى سأقتلك، لم يعد يهمني شيء، هيا اخرج من هنا هيا.

اندفع نحوها ليضربها فقذفت القلة باتجاهه دون تردد أصابت جبهته، فرأينا الدماء تخرج كالنافورة، وضع أبي يده يكتم الدماء في ذهول والجُرح يؤلمه بشدة وهو يقول:

- يا عاهرة .. يا بنت الكلب.

فقالت ود:

- هذه مقابل ما صنعته في أمي في الماضي أتذكُر؟

تحدى ألمه وحاول النهوض ليرديها قتيلة، فدفعته ود بقدمها، وركضت نحو المطبخ، خرجت معها سكين وقالت:

- اخرج وإلا قتلتك.

نهض واقترب نحوها وهو ممسك بجبهته بأحد يديه وهي تتراجع وتكرر:

- اخرج وإلا قتلتك.

اقترب أكثر فقالت:

- أنا جادة .. سأقتلك حقًا.

شُل لساني من هول ما أرى، فصارت أمي تصرخ ليتجمع الناس، ربما دقيقة ويقتل أحدهم الآخر، وبالفعل تجمع الجيران، أحدهم أمر أحد الصبية أن يجلب بُنًا ليطمسوا الجُرح لأبي، وأخذنا أنا وأمي ود لحجرتنا وصرنا نبكي جميعًا..

خمس دقائق وانفض الناس وغادر أبي معهم، فقامت أمي أغلقت الباب بالترباس من الداخل، وجاءت تقول:

– لمَ يا ود؟ لمَ وضعتِ رأس أمك بالطين؟ وأنا على استعداد أن أفني حياتي لأجلكما.

واصلت أمي ودموع القهر في عينيها:

– أين أنتِ يا أمي؟ لم يكن ليحدث ذلك كله في حياتك.

زاد بكاء ود ونشيجها وأنا أحاول أسكاتها حتى سمعنا طرقات على الباب، شعرنا جميعًا بالخوف وتملكنا الهلع، كان عبد العزيز فقال:

– أنا عبد العزيز .. افتحن.

لم يخف شيء في قريتنا، كل حدثٍ يحدث ينتشر خبره في أنحائها كالنار في الهشيم، وكل يضيف لمسته على الخبر حتى يصبح به جزءًا صغيرًا من الحقيقة.

فتحت الباب، فدخل عبد العزيز وأغلقه خلفه، لم يكن بحاجة لنقص له ما حدث، فقد عرف كل شيء، دخل عندنا وقال بصوتٍ منكسر:

– سننتقل إلى القاهرة.. لن ننتظر أن يتعرض لكم سيد مرة أخرى، أو أن يعايرنا أحد.

*****

أبريل 2010

الساعة التاسعة والنصف صباحًا، كنت أروي أصص نباتاتي، المصفوفين على سور الشرفة وأردد مع السيدة فيروز أغنية "نسم علينا الهوى من مفرق الوادي، يا هوى دخل الهوى خدني على بلادي" المنبعثة من الـ (وكمان) الذي جلبه لي عبد العزيز هدية نجاحي، كان هذا روتيني قبل ذهابي لكليتي "كلية طب قصر العيني"؛ أروي النباتات وأنا أسمع لأغنية من أغنيات فيروز من الشرائط التي أبتاعها.

سمعت صوت أمي:

- الفطار يا صبا.

دخلت الصالة وجلست جوار أمي وعبد العزيز نتناول الإفطار، فقال عبد العزيز:

- أين ود؟

أجبته واللقمة في فمي:

- نائمة .. سهرت كثيرًا بالأمس.

ابتلعت اللقمة وواصلت:

- اليوم بداية الشهر ألا يذكرك ذلك بشيء؟

- (الكمبيوتر) لم أنس لا تقلقي، قريبًا سيكون عندك.

تحدثنا قليلًا وابتدأ على إذاعة الشرق الأوسط برنامج "غنوة وحدوتة"

بدأت أغنية التتر

يا ولاد يا ولاد

تعالوا.. تعالوا

علشان نسمع أبلة فضيلة

راح تحكيلنا حكاية جميلة

وتسلينا وتهنينا

وتذيع لينا كمان أسامينا

أبلة.. أبلة فضيلة

نهضت وأنا أقول دون أن أنظر لساعة يدي:

- الساعة العاشرة إلا ثلث فقد أتى برنامج أبلة فضيلة، سأذهب الآن، أتريدان شيئًا؟

- نريد سلامتك.

قالتها أمي فقبلت يدها وعلقت حقيبتي في ذراعي وغادرت. حين غادرنا بلدتنا فارين من بطش أبي والفضيحة، اختار عبد العزيز حيًا قريبًا لكليتي؛ فقد كتبت في استمارة الرغبات جامعة القاهرة "رغبة أولى"، وبعد أن ضبطنا جميع أمورنا أجّرنا قطعة الأرض، وبعنا الدجاج والماعز، وأغلقنا بيتنا وأخذنا خوخة معنا، انتقلنا إلى هذه الشقة الإيجار، شقة صغيرة مكونة من حجرتين في الطابق الثاني من عقارٍ قديم متهالك، تناسب حالتنا المادية، ولكن أهم ما يميزها "الشرفة" التي في حجرتي أنا وود؛ حيث الجلوس بها ليلًا لمراقبة النجوم كعادتي مع صوت أم كلثوم، وصباحًا

لأستمتع بعبير نباتاتي مع صوت فيروز، لم تبعد الكلية عنها كثيرًا إذ أن موقعها في أحد الحواري المتفرعة من شارع عماد الدين القريب من قصر العيني، ولكن الزحام يجعلها كأنها تبعد عشرات الكيلو مترات. مر تسعة أشهر على مغادرة قريتنا، كنت سعيدة بهذا المنعطف الذي أخذناه، أما ود التي كانت أكثرنا مرحًا في الماضي، أصبحت أكثرنا تعاسة، انطفأ القنديل المتوهج بقلبها أصابه عطب أمسى خافتًا لم يستطع شيء إصلاحه، لم تُرد أن تكمل تعليمها وقالت سأكتفي بشهادة الثانوية، لم نوافق جميعًا على ذلك فمجموعها كبير، وأيضًا لأجل أن تنشغل في دراستها وتنسى ما حدث ولكنها أصرت، فلم نملك سوى الخضوع لأمرها.

جلست قبل المحاضرة على أحد المقاعد، أنتظر حضور "الدكتور" كان حليم أحد زملائي في الدفعة يجلس وحده على مقعد مجاور، لمحني فأتى جلس جواري، كاد قلبي أن يقفز من موضعه فحليم جذابًا وذكيًا أعجبت به منذ فترة قصيرة رغم أننا قلما تحدثنا، قال:

- كيف حالك يا دكتورة؟

- بخير وأنت؟

- بخير.. أتيت اليوم قبل المحاضرة على غير عادتك.

- الطريق لم يقف كثيرًا اليوم الحمد لله.

- لا أعلم كيف للحكومة أن لا يكون عندها حل للطرق المزدحمة هذه.. الفساد يطول كل القطاعات.

- ما دخل الحكومة؟ إنها الكثافة السكانية؛ نحن في قلب العاصمة.

– نحن أقل في العدد كثيرًا من الصين والهند، ومع ذلك طرقنا تشبه طرقهما من حيث التكدس المروري.

– كم مساحة مصر وعدد سكانها؟ وكم مساحة الصين وعدد سكانها؟ إذا حسبتها ستجد أن الأمر لا يختلف كثيرًا.

– مساحة مصر مليون كيلو متر وعدد سكانها بآخر إحصاء 80 مليون.

ضحكتُ، فقال:

– علام الضحك؟

– تجيب وكأني أستجوبك في حصة جغرافيا، عامة ومساحة الصين 9 مليون، غير أن المساحة المأهولة في مصر هي 3٪ فقط.

– هذا أسوأ أن يكون عندنا تلك المساحة ولم تستغل، وأنا صغير كنت أتعجب أن الأجانب يقولون عن العرب "القادمون من الصحراء"، وأقول ها هي مصر نهر وبحار وعمار، لم أكن أعلم أنني إذا نظرت على مصر من نافذة طائرة سأجد خط أزرق يحيطه بنيان قليل واللون الأصفر يطغى على كل شيء.

اتجه حديثنا السياسي للجغرافية، ظللنا نتحدث حتى جاء (الدكتور) ودخلنا المحاضرة، كان حديث حليم مملًا، ولكني كنت سعيدة لكونه أول حديث طويل يجمعنا.

*****

في المساء، كنت وود في الشرفة نجلس على مقاعد خشبية وننظر للسماء، ونسمات هواء أبريل تلفحنا وصوت أم كلثوم يزيد الجو جمالًا، قالت ود بعد طول صمت:

- اليوم وأنت في الكلية، جاءت أم محمد سامي تريدني لولدها.

- وما رأيك؟ ورأي أمك وعبد العزيز؟.

- يقولان أنه على خلق وبالنهاية الرأي لي، أفكر بالموافقة، خاصةً أنها تقول أن محمد منذ أول يوم رآني به وهو يحلم بالزواج مني، أي سيكون حنونًا ولن يقسو عليَّ.

- وأنتِ هل تحبينه أو على الأقل معجبة به؟

ابتسمت ود ابتسامة جانبية ساخرة وهي تقول:

- أحبه؟! لم أعد أشعر .. قلبي أصبح وظيفته ضخ الدماء فقط.

- ولكني أرى أن الحب أهم شيء في الزواج.

- لم يكن أهم شيء، به أو بدونه ستمر الحياة.

- ولكن الحياة قاسية والحب يجعلها أقل مللًا وكآبة، ألا تغيرين من علاقة أمك وعبد العزيز؟.

- وماذا بعد أن أغير؟ هل عليَّ أن أبحث عن علاقة مثلها؟ الحب يأتي وحده لا ينبغي أن نبحث عنه.

دخل عبد العزيز يقف في الهواء ويسألنا عن حالنا، فقلت فور دخوله:

- كنا نتحدث عنك.

عقد ذراعيه واستند على سور الشرفة بظهره ليولينا وجهه وهو يقول:

- لعله خير.

- ترى ود أن الحب ليس ضروريًا في الزواج، وأنا أرى أنه أهم شيء وذكرتُ علاقتك بأمي كمثال.. عن نفسي لن أقبل بأقل من علاقة مثلها.

- ود معها حق، الحب ليس ضروريًا في البداية على الأقل، ولكن الضروري هو التفاهم وتناسب الطباع. ما فائدة أن تتزوج امرأة من رجلٍ تحبه ويحبها، ولكنهما غير متفاهمين أحدهما متصلب الرأي والآخر عنيد .. هذه العلاقة ستبوء بالفشل لا محالة.

أقنعني قليلًا فقلت:

- ولكن الحب ضروري أيضًا.

أجابني:

- التفاهم والعشرة يولدان الحب.

وجه حديثه لود:

- ما رأيك بطلب محمد؟

- ما زلت أفكر.. ولكن بنسبة كبيرة سأوافق.

- يسر الله لكِ الخير.

لم تمر هذه الليلة بسلام، فكرة أن تتزوج ود وتتركني وحيدة أرقتني كثيرًا، لم أتخيل أن أنام بمفردي على سريرنا، ولا أن يمر يومي دون أن نتحدث في الظلام قبل النوم، ودون عراكنا على الأسباب التافهة ومساعدتنا لبعضنا في شئون البيت والمطبخ وكل شيءٍ يجمعنا، لم أتخذ صديقة غيرها ولا هي. منذ أن كنا صغارًا اكتفينا ببعضنا، إنها أختي وصديقتي التي لا أستطيع

الاستغناء عنها، تمنيت بداخلي أن لا توافق على هذه الزيجة، لتظل معي، لم أستطع السيطرة على قنواتي الدمعية وتحدي الغصة التي في حلقي، بكيت كثيرًا دون صوت حتى لا تشعر ود النائمة جواري.

*****

مرت أيام وعلى عكس ما تمنيت وافقت ود، وتمت خطبتها على محمد أحد جيراننا، كان محمدًا عمره 25 عامًا يعمل "كول سنتر" في إحدى شركات المحمول، في اللقاءات التي جمعتني به استطعت أن أشعر أنه طيب القلب ويحب ود كثيرًا، حددت أمي وأهله مدة الخطبة ستة أشهر، سعدت من أجل ود رغم حزني على فراقها.

أصبحنا جميعًا نجهز لزواج ود، الحاسوب الذي كنت أريده تنازلت عنه؛ لأننا نريد جمع كل مبلغ من المال لتكاليف الزواج، من أجهزة كهربائية وأدوات منزلية ومفروشات وملابس، أعلنا حالة التقشف في البيت للادخار.

*****

حتى الآن لم أكون صداقة مع إحداهن جميعهن زملاء فقط، لم أتخذ صديقة بالمعنى الكامل للصداقة، أغلبهن كن من سكان القاهرة ولهن أسلوب وعادات غير التي تربيت عليها، كما أن الكثيرات منهن فارغات العقول يتحدثن عن الموضة، ومستحضرات التجميل، والمسلسلات التركية ولاعبي الكرة، لم أجد في حديثهن ما يجعلني أرغب في الحوار، فكنت أقضي

أوقات الفواصل وحيدة، ذات يوم كنت أجلس على العشب أتناول شطيرة، فجاء حليم، يبدو أنه يتتبعني، هكذا حدثتني نفسي، جلس وقال:

- كيف حالك أيتها الانطوائية؟

- انطوائية بكيفي.

أومأ برأسه ضامًا شفتيه وهو يقول:

- يعني أنني أخترق انطوائيتك الآن.

- اختراق مسموح به، لا تقلق.

- ذاكرتِ للاختبار؟

- سأذاكر غدًا ما زال هناك وقت على يوم الأحد.

- أوما علمتِ .. الأحد إجازة.

- لمَ؟

- 25 أبريل .. عيد تحرير سيناء.

واصل ساخرًا:

- أي تحريرٍ ونحن لم نستطع أن نوقّف فيها كُشك سجائر دون إذن إسرائيل؟.

- حليم، ألا تستطيع أن تتحدث دون أن تقحم السياسة في حديثك؟.

- ما فائدة أن يعيش الإنسان دون قضية يؤمن بها وتأخذ حيزًا من تفكيره ووقته وماله، ونفسه لو أقتضي الأمر؟

- وما فائدة أن يعيش مؤمنًا بقضية أيضًا؟

- لن يعيش سوف يحيا.

- وما الفرق بينهما؟

- كبير.. العيش هو الذي تشترك فيه جميع الكائنات.. أما الحياة فشيءٍ غير ذلك.

شغلتني تلك المحادثة، وأنا في الحافلة في طريقي للعودة، كنت أفكر في هذا الكلام وأنا أنظر من النافذة، عندما عُدت كتبت في أحد دفاتري "لا بد أن يحيا الإنسان لأجل شيء.. حتى إن كان لأجل قطة يطعمها أو نبتة يرويها"

أنا مؤمنة بالقضية الفلسطينية، ولكن هذه لا تحتسب إذ إنها فرض عين على كل إنسانٍ بالمعنى الكامل للإنسانية.

*****

مر شهرٌ وفيه استطاع محمد أن يستميل قلب ود إليه قليلًا، إذ كان يعطف على خوخة ويحبها مثل ود تمامًا هذا التفصيل الصغير أعجب ود كثيرًا فأعجبت به، فقلوبنا مهيئة لحب من يهتم بنا ولا يستهين بأشيائنا المفضلة، أما أنا فكنت أهييء نفسي لفراق ود حتى تخف وطأته حين يحدث وتتزوج، وحليم أصبح صديقي وتبادلنا أرقام هواتفنا، ذات يوم أثناء مغادرتنا للمحاضرة قال:

- معك دفتر "الهتسولوجي"؟ أريد أن أرسم بعض الخلايا.

أخرجته له من الحقيبة وأنا أقول:

- تفضل.

أخذه وصار يتصفحه بنظرة سريعة، فوقعت عيناه على الجملة التي دونتها " لا بد أن يحيا الإنسان لأجل شيء.. حتى إن كان لأجل قطة يطعمها أو نبتة يرويها"

ابتسم قائلًا:

- عندك قطة ونبات أليس كذلك؟

لم أكن أعلم ماذا رأى في دفتري ليعلم ذلك فقلت:

- من أين علمت؟

- مخاوي.. وأقرأ الكف والفنجان.. إذا أردتِ أن أقرأ لكِ الفنجان، فهيا إلى "الكافتيريا" سوف أعزمك على قهوة.

كانت هذه دعوة صريحة منه لدعوتي لاحتساء القهوة معًا، ولكنه جلبها بطريقة دعابية حتى لا أحرجه إن رفضت، كان ذكيًا وهذا ما جذبني له فالوسامة العقلية لها سحر خاص، وافقتُ جلسنا على مقعدين متقابلين، كنت أشعر بالتوتر ويدي ترتجف لاحظ هو ذلك فقال:

- اهدأي قليلًا .. لن أقتلك .. وآخذ أعضاءك.

أومأت مبتسمة فقال:

- تقولين أن لا بد أن يحيا الإنسان لأجل شيء.. بإمكانك أن تحيي لأجل فكرة عظيمة، كرفضك للظلم والاستبداد.

فهمت أنه قرأ جملتي في الدفتر، فقلت:

- بالطبع أنا أرفض الظلم والاستبداد كأي إنسان سليم الفطرة.

- ولكنك ترفضيهن بصمت.

- وكيف أرفضهن بصوت؟.

- أن تنضمي مثلًا لحركة سياسية وتكوني ناشطة حقوقية .. كحركة 6 أبريل المنضمُ لها.

- وماذا تفعل هذه الحركة؟

- تقف في وجه الدولة.. هناك فساد ومساوئ كثيرة يعاني منها الشعب ونحن نسعى لأن تكون الدولة أفضل.

- أذكر لي شيئًا.

- قانون الطوارئ مثلًا، هذا القانون لا بد أن يتوقف العمل به. أتدرين؟ ما معنى أن نكون دائمًا في قانون طوارئ؟ أن يكون من حق أي ضابط شرطة إهانتي وتفتيشي واعتقالي دون سبب، سوى أن هيئتي لم تعجب جنابه.

ظللنا نتحدث حتى شعر أنه ممل بهذا الحديث، فقال فور انتهائي من فنجان القهوة:

- أعطني الفنجان.

أعطيته له فقلبه وفعل كما يفعل العرافون وقال وهو ينظر بداخله:

- عندك محاضرة "أناتومي" بعد نصف ساعة.

ابتسمت قائلة:

- يا إلهي، إنك بارع في قراءة الفنجان.

ضحك قائلًا:

- لديك صديق ممل .. يظن نفسه جيفارا.

أومأت قائلة:

- هذا صحيح أنه أمامي، ولكنه أحيانًا يكون لطيف.

- أنتِ خفيفة الظل وهذا شيء نادر بين الفتيات.

- أنت تقول ذلك لأنك لم تتعامل مع ود أختي، إنها خفيفة الظل وجميلة جدًا ولكن الأيام سلبت منها تلك الروح الدعابية وتركتها باهتة.

- أنتِ كريمة أيضًا وتنسبين الفضل لأهله.. وهذا شيء نادر في البشر عمومًا.

شعرت بالخجل والسعادة، فقلت:

- شكرًا.

*****

في المساء، بعد نوم الجميع بساعة، قالت ود في الظلام بصوتٍ منخفض حتى لا توقظني إن كنت نائمة:

- مستيقظة؟.

- أجل.

- الجامعة حلوة؟

سؤال عجيب في تلك الساعة، فهمت أنها لم تستطع النوم وتريد بعض السلوى فقلت:

- إن كنتِ معي كانت ستكون كالنزهة.

- والفتيات والشباب يجلسون معًا ويتسامرون ويلعبون كما تظهر في

التلفاز؟ أم هذا خيال مؤلف مراهق؟

ضحكت قائلة:

- شيء من هذا القبيل، ما رأيك أن تحضري يومًا معي؟.

- حسنًا.. ولكن أجبيني أحببتِ أحدهم أم لا؟.

- لا أعلم.

- كيف؟.

- لا أعلم أحببت أم أن الشعور بالفراغ يصور لي هذا.

- تعني أنكِ أحببتِ.

- تقريبًا.

أشعلت اللمبة "السهاري" والتفتت لي وهي تقول:

- احكي لي عنه.

اعتدلت وقلت:

- لم يكن وسيمًا كأبطال السينما وقامته متوسطة الطول، ولكنه أنيق وجذاب له عقل راجح وقلب عطوف وعنده قضية، يكره مبارك كعبد العزيز.

- ما اسمه؟

- حليم.

- كانت جدتك تقول دائمًا أن المرء له من اسمه نصيب فهنيئًا لكِ.

ابتسمت فقلت:

- هل أحببت محمد؟ أم لم يحن الأمر بعد؟.

نظرت أمامها وهي تقول:

- أرتاح له وأطمئن، أتفهمين هذا الشعور؟

صمتت قليلًا وواصلت:

يبدو أنني أحببته يا صبا.

ابتسمت، سعدت لأجلها

طال تسامرنا، كان عندي محاضرة في الصباح ولكني لم آبه بها، اشتقت لأحاديثنا هذه، قضينا الليل كله نتسامر حتى أذن الفجر ونهضنا لنصلي.

*****

9 يونيو 2010

ونحن نشرب الشاي بعد تناول الغداء، قال عبد العزيز:

- منذ ثلاثة أيام قتلت الداخلية شابًا اسمه خالد سعيد في الإسكندرية بطريقة بشعة، ضربوه بوحشية حتى تكسرت جمجمته وفكه وسقطت أسنانه وتغيرت ملامحه، كل هذا أمام الناس. وبعد ذلك وضعوا في فمه لفافة تبغ وقالوا أنها هي التي تسببت في وفاته.

قالت أمي متأثرة:

- يا حسرة قلب أمه عليه، وماذا فعل لينال كل هذا؟

- كان معه فيديو يدين مخبرين وضباط قسم شرطة سيدي جابر وهم

يقومون بالاتجار بالمخدرات، ونشره بين أصدقائه.

قالت ود:

- أفي غابة نحن؟

أجاب عبد العزيز:

- نحن في قانون طوارئ يا عزيزتي، فلم يختلف الأمر كثيرًا.

لم أتكلم أنا، ولم أركز في حديثهم بعدها، لقد شعرت بالكثير من الألم والغضب مما سمعته، شعوري بالألم جعلني أفكر في كلامِ حليم، لا بد أن يرفض الإنسان الظلم ما استطاع، لن أرفض الظلم والاستبداد بصمت، هذا الغضب سأفرغه بانضمامي لحركة 6 أبريل كما حليم.

*****

بعدها بأيام في الجامعة قابلتُ حليم وأنا أعلم أنه سيكون غاضبًا كثيرًا لما حدث، وسيفرغ غضبه هذا في الحديث معي كالعادة، قال:

- رأيتِ فداحة قانون الطوارئ؟ لا بد أن يلغوا هذا القانون الذي نعيش فيه منذ عقود، نحن لسنا عبيد يا صبا.

صمت قليلًا وواصل:

- واقعة خالد سعيد هذه تحدث يوميًا في ظل هذا القانون ولا أحد يعلم، ولكن مواقع التواصل الاجتماعي هذه الأيام أصبحت هي الإعلام البديل.. سنكون لهم بالمرصاد من الآن فصاعدًا.

لم أكن أعلم كثيرًا في السياسة ولكني شاركت معه في مظاهرة، تطالب بالقصاص لخالد سعيد ووقف العمل بقانون الطوارئ، ولكن انتهت المظاهرة باعتقال حليم ومجموعة من أعضاء الحركة في الكلية، فضها الأمن وسحبوهم من بيننا بالضرب والإهانة، وسط الفوضى والركض كنت أبحث عن حليم فرأيته وعسكري الأمن يضربه بعصاه فسقط من الألم وجره لعربة الشرطة، نظر لي وهو يجتر بنظرة منكسرة تمنيت لو لم يرني، شعرت بالصدمة والخوف، ما مصيره؟ وماذا سيفعلوا معه؟ رأيت واحدًا بالقرب مني يضرب كفه على الآخر وهو يقول "ضاع مستقبلهم" هل هذا ممكن! أن يقول المرء لشيء لا يعجبه "لا" فيضيع مستقبله جراء هذه الكلمة؟ يا لبؤس من يسكنون هذه البقعة الجغرافية.

اعتقال حليم وضعني في مواجهة مع نفسي، بعد كثيرٍ من الحديث في السياسة يوميًا مع عبد العزيز، ومشاهدة القنوات الإخبارية علمت عن جرائم وفظائع لم أكن أعرفها من قبل تحدث يوميًا في أقسام الشرطة والمعتقلات، كنت أظنها تحدث في الأفلام فقط لأجل الدراما، تغيرت أيديولوجيتي وكثير من المفاهيم، ولكني كنت أضعف من مواجهة هذا النظام الذي لا يتحدث مع معارضيه سوى بلغة واحدة "البطش"، كنت كل يوم أذهب للكلية على أمل أن أرى حليم وقد خرج ولكن كان هذا لا يحدث، أذهب بالأمل وأعود بالخيبة والأسى، أصبح هذا نمط حياتي لقد سرق نظام مبارك نبتة حبي قبل أن تزهر وحطم قلبي، وقضى على أحلام شباب ومرغ قلوب أهاليهم في التراب.

*****

بمرور الأيام، أحبت ود محمد كثيرًا، فقد استطاع أن يخرجها من مزاج البؤس، انتهت الفترة المحددة للخطبة وتم الزواج، تكلل يوم زواجهما بالسعادة العارمة للاثنين، أعتقد أن للسعادة منتهى يبلغها المرء حين يتزوج من يحب، أما أنا وأمي فحزنا لفراق ود قدر سعادتنا بزواجها من حبيبها، وأصبحت وحدي بالمعنى الكامل للوحدة، أنام وحدي، وأذهب للكلية وحدي، وأجلس فيها وحدي على أمل خروج حليم، أو أن معجزة تحدث وتجعله يخرج، رغم أن زمن المعجزات قد انتهى ولكني كنت أدعو الله أن تحدث المعجزة التي تمكن حليم الخروج من غياهب سجون مبارك؛ لأن كل المؤشرات كانت تقول أنه لن يرى الأرض مرة أخرى، أو ربما عندما يصبح كهلًا وقد مرت أجمل أيام عمره.

كنت يوميًا أجلس وحدي في المساء على مقعدي في الشرفة جوار النباتات، وأشغل أغنية محمد عبد الوهاب على المذياع التي تحاكي حالي تمامًا مع حليم، وأردد معها بخفوت وأنا أنظر نحو النجوم في الأفق

"يا مسافر وحدك وفايتني ليه تبعد عني وتشغلني
ودعني من غير ما تسلم وكفاية قلبى أنا مسلّم
دي عينيا دموعها.. دموعها بتتكلم

يا مسافر وحدك وفايتني ليه تبعد عني وتشغلني
على نار الشوق أنا هاستنى وأصبّر قلبي وأتمنى

على بال ما تجيني وأتهني بس أنت إياك تبقى فاكرني
يا مسافر وحدك ليه تبعد عني وتشغلني
خايف للغربة تحلالك والبعد يغير أحوالك
خليني دايمًا دايمًا على بالك
يا مسافر وحدك وفايتني ليه تبعد عني وتشغلني
مهما كان بعدك هيطوّل ده أنا قلبي عمره ما يتحوّل
هافتكرك أكتر من الأول بس أنت هيهات تبقى فاكرني
يا مسافر وحدك وفايتني ليه تبعد عني وتشغلني"

تنساب دموعي أثر كلمات الأغنية وتنهشني الوساوس، تُرى ماذا يشعر حليم الآن؟ هل يعذبوه، أم أنه فقط يجلس على بلاط زنزانة ضيقة لا يدخلها الهواء والشمس، ممتلئة بالبكتريا والروائح العفنة، يشعر بالبرودة ولا يجد غطاءً يدفئه، تأتي في عقلي صورًا من مشاهد فيلم "احنا بتوع الأتوبيس" وهم يعذبون المعتقلين ويسحلوهم من أطواق حول رقبتهم كالكلاب، ويمارسون عليهم شتى ألوان العذاب، بعضهم يموت من شدة التعذيب، والبعض الآخر يموت من القهر والذل، ينتهي التفكير بأمنية لم تتحقق أبدًا ليتني لم أعرف حليم من البداية، ليته لم يسر هو في هذا الطريق. أحيانًا كان يدخل عندي عبد العزيز، أمسح دمعاتي قبل أن يراها، كان يشعر أن هناك شيئًا ما يعكر صفائي، سألني مرة:

- أبك شيء؟

- لا.. لا تقلق.

- إذا أحببتِ أن تقصي لي أي شيء .. سأسعد بسماعه ومساعدتك.

ابتسمت له، فقال "تصبحين على خير" ودخل لينام.

*****

لم يكن بيت ود بعيدًا عنا؛ إذ كان في نفس الشارع، كنت أذهب لها من حينٍ لآخر لأقلص وحدتي قليلًا عندما يكون محمد زوجها في العمل، نعد الطعام سويًا أو نشاهد فيلمًا معًا، ونتذكر أيام طفولتنا، أشكو لها آلامي فتخفف عني، كنت أذهب لها بقلب يحمل أطنانًا من الأسى وأعود خفيفة كنسمة هواء..

ذات يوم، ذهبت لها وكانت تشعر بالوهن والضعف، أشرت عليها أن نذهب لمختبر تحاليل لربما تكون حاملًا، ذهبنا معًا وانتظرنا هناك نصف ساعة حتى أخرجوا لنا النتيجة التي كانت تنبئ بحملها بالفعل، عانقت ود وأنا أنتشي من السعادة؛ قريبًا سيكون بيننا طفل يلطف أيامنا ويضفي لها بهجة، قلت لها ونحن في الحافلة عائدتان للمنزل:

- ماذا ستسمين الطفل إن كان ولدًا أو كانت فتاة؟.

قالت وهي سعيدة:

- إن كان ولدًا سأترك لمحمد أن يختار هو الاسم، وإن كانت فتاة فسأسميها دلال على اسم جدتك.

بعدما انتهى حديثنا سمعنا الناس تتحدث عن أنه هناك دعوات لثورة يوم الثلاثاء القادم 25 يناير في ميدان التحرير، لم أشعر بالكثير من الأمل،

بالتأكيد نظام مبارك لن يسمح وسيخمدها ويوئدها في مهدها، ابتسمت ساخرة؛ منذ فترة كان مجموعة أصدقاء يسيرون في ميدان التحرير فأخذهم الأمن؛ لأن هذا يعد تجمهرًا غير مسموح به، فكيف سيخرج الملايين؟!

*****

25 يناير 2011

على عكس توقعاتي وتوقعات عبد العزيز، قامت الثورة وخرج آلاف الناس في الكثير من مدن مصر الكبرى، مطالبين برحيل الحكومة وكان الهتاف "عيش .. حرية .. عدالة اجتماعية"

نبت الأمل بداخلي مرة أخرى، قامت الثورة وسيخرج حليم! ولكن لم يستمر الأمل لنهاية اليوم وتحول لإحباط؛ إذ حاول النظام التصدي لهذه الدعوات كدأبه في القمع، قطع الاتصال في ميدان التحرير، وقامت قوات الأمن باعتقال المئات، لردع الثوار الآخرين، ولكن الثورة تفجرت كالبركان، زادت الاحتاجات في اليوم التالي كما زاد عنف النظام، ونزل الأمن بالآلاف للاعتقالات وفض المظاهرات، كان الإعلام المصري متجاهلًا الأحداث تمامًا، فقط يعرض أغاني وطنية ويصور السماء والنيل فلجأنا إلى قناة الجزيرة..

كنا لم نحول عنها طوال اليوم، نتجمع كلنا لمراقبة الأحداث التي ظلت تسير ببطء حتى جمعة الغضب 28 يناير، اليوم الذي أشعل الثورة، كانت ود وزوجها عندنا ونحن نشاهد جميعًا، الكر والفر بين الثوار والشرطة وقنص أعين المتظاهرين وضربهم بالرصاص الحي والخرطوش، والدخان الكثيف

لقنابل الغاز المسيل للدموع ودهس السيارات المصفحة والدبلوماسية للمتظاهرين.

وتيرة الأحداث تسارعت، انسحب الأمن في بعض المدن الكبرى وقُتل وأصيب عدد كبير من المتظاهرين، كما اعتقلوا الآلاف، وحرق المتظاهرين أقسام الشرطة ومقرات الحزب الوطني (الحزب الحاكم)، فهرب المساجين الجنائيون والمعتقلون ونزل الجيش للشوارع بعد الانفلات الأمني. سعدت بذلك، بالتأكيد خرج حليم مع الذين خرجوا، دخلت حجرتي أتصل عليه، كان هاتفه كما هو مغلق.

خرجت وجدت سقف مطالب المتظاهرين ارتفع وطالبوا برحيل الطاغية مبارك، قال عبد العزيز ونحن نشاهد التلفاز:

- سيرحل مبارك لا شك .. سيأتي حق أم حسين والذين ماتوا معها.

قالت ود تسأله:

- هل لمبارك دخل في موت جدتي؟

- بالطبع هو المسئول الأول، كما أنه سهل خروج ممدوح إسماعيل من مصر.

عندها قررت أنني لا بد أن أشارك في هذه الثورة، لن أقف مكتوفة الأيدي وسط تصاعد الأحداث، ليس لأننا لنا ثأر معه فقط، ولكن لأجل أن يكون لي دور، لم أكن وحدي هذه المرة قرر عبد العزيز النزول أيضًا وود ومحمد رغم رفض أمي القاطع لخوفها علينا، ولكننا أخذنا قرارًا لا رجعة فيه، فأخذت هي مثله "أن ود لن تنزل أبدًا"، لكونها حاملًا وفي نزولها خطورة على الجنين.. فوافقها محمد وأمر ود بعدم النزول.

*****

29 يناير .. يوم السبت، اليوم الخامس للثورة.

نزلنا الميدان في الصباح، بعدما سمعتنا أمي سيل من دعواتها ونصائحها الكثيرة التي أهمها ألا نظل هناك إذا حدث مواجهات مع الشرطة، نزلنا نرتدي المعاطف والشيلان الشتوية، كنت أنظر حولي وأنا مبهورة بالناس الذين كسروا حاجز الخوف ولم يعدوا يخشوا شيئًا، وبالحياة داخل الميدان، المسيحيون يشكلون دروعًا وسلاسل بشرية ليحموا المسلمون وهم يصلون، لقد كان رباط الحب واضحًا جليًا! والجميع ينظف ما حوله، لا اختلاف ولا عنصرية ولا تعصب، الكل اجتمع على حب الوطن فقط، لأول مرة أشعر أنني أحب مصر بهذا القدر، رأيت الدبابات لأول مرة في الواقع، شعرت بالخوف قليلًا سألت عبد العزيز:

- هل هذه الدبابات لحمايتنا أم لقتلنا؟

قال:

- لا أعلم، حتى الآن لم يتضح شيء، أظنها لحمايتنا وحماية البلاد من الخراب.

كنا نقف مع المتظاهرين في الحديقة المقابلة لمجمع التحرير، ابتعت علم مصر، ظللت ألوح به بحبٍ وفخر وأنا أردد الهتافات مع الثوار التي بها طابع فكاهي مرير كعادتنا كمصريين:

"هما بياكلوا حمام وفراخ واحنا الفول دوخنا وداخ"

"هما يصيفوا في مارينا واحنا الجوع والقهر هارينا"

"هما يشتوا في منتجعات واحنا ولادنا في معتقلات"

"هما بيركبوا طيارات واحنا نموت في العبّارات"

يا إلهي!! كم هو مبدع مؤلف تلك الهتافات، لم تكن شعارات متفقة الوزن والقافية بقدر ما كانت تحاكي الواقع تمامًا، لم أكن أفقه كثيرًا في السياسة ولكن حجم الظلم والفساد والدماء الذي رأيته في الأيام الأولى للثورة جعلوني أؤمن بها، كل الذي كنت أعلمه من قبل أن مبارك متواطئ وفاسد، علمت كل شيء في الثورة من الهتافات.

سرنا باتجاه آخر، رأينا مجموعة أخرى من المتظاهرين يهتفون "ارفع راسك فوق أنت مصري"، أردد معهم وأنا ألوح بالعلم وجلدي يقشعر من فرط الوطنية والشعور بالانتماء، كنت أبحث بين الوجوه عن حليم، وآمل أن أراه.. كان لم يغب عن خاطري لحظة في هذه الأجواء.

بعد أذان العصر شعرت وشعر المتظاهرون بحركة غير عادية، إذ سمعنا صوت طلقات رصاص، ورأيت أناس يركضون ناحيتنا من اتجاه مبنى وزارة الداخلية القريب من ميدان التحرير، قال أحد المتظاهرين أن الشرطة فوق المباني تقنص الثوار، شعرت بالخوف، شعر عبد العزيز برجفتي وارتباكي فقال لي:

- لا بد أن ترجعي .. القناصة يحيطون بنا.

قال محمد:

- سأعود بها وأطمئن على ود وخالتي، يقولون اللصوص والبلطجية في كل مكان.

قال عبد العزيز:

- حسنًا.

ولكني رفضت العودة، إذ مر أمامي كثير من المتظاهرين المصابين يحملوهم للمستشفى الميداني، وسمعت نداء يدعو الأطباء للتطوع قلت لهم:

- سأساعد المصابين في المستشفى الميداني، عندي بعض المعلومات وطرق الإسعافات.

وافقا وانضممت مع الأطباء في المستشفى الميداني، أحاول معهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أرواح المتظاهرين الذين أصيبوا برصاص الأمن، كان بعضهم مصابًا في قدمه، وبعضهم مصاب في قلبه والبعض الآخر مصاب في رأسه، مصاب الرأس والقلب كان يموت في نهاية كل المحاولات، وبعضهم كان ينازع لوقت طويل. لأول مرة أرى أشخاصًا ينازعون الموت. الساعة السادسة، رأيت بعض الثوار ينامون في الزاويات والخيام من عناء ما مروا به، وبعضهم يتناقشون ويتوقعون ما سيحدث في الساعات القادمة وبعضهم يهتف، ووقف آخرون على أطراف الميدان لحمايته من أي هجماتٍ دامية قد تحدث، ومن حينٍ لآخر كان الميدان يستقبل أفواجًا من المتظاهرين لينضموا لنا، بدا الميدان وكأنه مارثون احتفالي، موسيقى النشيد الوطني تطرب أذني، أسير قليلًا أجد مجموعة من المتظاهرين يغنون الأغاني الوطنية

على إيقاع الدفوف والتصفيق، كان شعوري متضاربًا بين الفخر والسعادة، والحزن على الذين ماتوا بين يديَّ وأنا أتخيل شعور أهاليهم.. أذاعوا لنا في الميدان بيان القوات المسلحة الذي يدعو المواطنين الالتزام بحظر التجوال؛ لأن هناك مجموعة من اللصوص والمخربين يقومون بعمليات سلب ونهب وترويع الأسر في البيوت، سرت حالة من الذعر بين المتظاهرين على أسرهم، بينما أذاع آخرون أن كل هذا كذب من أجل أن نعود لبيوتنا ونترك الميدان، لم يأبه محمد بهذا وقال:

- لا بد أن نعود الآن، أتاني أيضًا على هاتفي رسالة تدعو المواطنين بحماية ممتلكاتهم وشرفهم.

قال عبد العزيز:

- أتتني أيضًا.

قال محمد:

- لا بد أن نعود أنا أخشى كثيرًا على ود، حتى إن لم يكن هذا الكلام صحيحًا نكون قد اطمأننا عليهم.

لم أكن أريد أن أترك الميدان أبدًا؛ فقد وجدت فيه حياة كاملة، ولكني لم أرفض العودة لأجل أمي وود.

عدنا ونحن مقررون أننا سنعود للميدان مرة أخرى في الغد، ونحن عائدون وجدنا اللجان الشعبية في كل مكان، أطفال وشباب ورجال يشكلون دروعًا بشرية أمام كل منطقة وشارع، بعضهم ممسك بعصا وبعضهم بسلاح أبيض، يتأهبون لأي هجمة من اللصوص.

*****

30 يناير، يوم الأحد .. اليوم السادس للثورة.

في اليوم التالي، قل عدد المتظاهرين كثيرًا تأثرًا بالذعر الذي حدث بالأمس، وبينما كنا في الميدان والبعض منشغل بالهتافات، والبعض بالمناقشات، والبعض بتناول الطعام، مر فوق رؤوسنا طائرتان حربيتان، صمت الجميع فجأة دون اتفاق، إذا وقعت إبرة في ذاك الوقت كانت ستصدر صوتًا، الكل حبس أنفاسه وظن نفسه سيموت الآن، فكرت أنا أنه ربما جُن مبارك وسيقصف الميدان بالثوار، كما حدث في الصين من قبل وسحقوا الثوار في ساحة تيانانمن بالدبابات، لم يفهم الجميع ماذا سيحدث، شعرت بالخوف ووصلني شعور الناس بالخوف أيضًا وأنا أنظر في أعينهم.

فالخوف فطرة بشرية وضعها الله فينا حتى لا نهلك بعضنا البعض، ظلت الطائرات تحلق ولم نفهم بعد ماذا يحدث، هتف أحدهم "حسني اتجنن .. حسني اتجنن" فهتف جميع الميدان ذات الهتاف، فبالعادة كانت كل مجموعة تهتف هتاف غير الأخرى، بعد قليل وجدنا شابين من الميدان يُطيران طائرتين ورقيتين كأنما يقولان سنظل نواجه أسلحتكم الثقيلة بأضعف الأشياء كالهتافات واللافتات والآن الطائرات الورقية، بثت فينا هذه الحركة الشجاعة صار الجميع يشير للطائرات، كأننا نقول لهم نحن هنا وباقون هنا حتى تتحقق مطالبنا، لن نخشاكم.

قال البعض أن هذه الطائرات فقط لإخافتنا حتى نعود بيوتنا، وقال البعض أنها لحمايتنا إذ إنها تابعة للجيش والجيش حتى الآن يؤيد موقفنا وقال آخر إنها عناصر لتأمين المشير طنطاوي، فعدنا لهتافاتنا "الشعب يريد إسقاط النظام" بقوة أكثر وحماس شديد،

كل التغييرات التي أجراها مبارك فشلت في احتوائنا ولم ترضنا، كتعيين عمر سليمان نائبًا له وتغيير الحكومة، كان مطلبنا الذي لن نتنازل عنه رحيل نظام مبارك بأكمله.

ظللت في الميدان أسير بين الثوار وأشاهد العروض المضحكة التي يقوم بها البعض، حتى رأيت بعض الثوار متحلقين وأحدهم ممسك بعود ويغني أغنية الشيخ إمام "شيد قصورك"

وهم يرددون خلفه لم أكن أعرفها من قبل ولكنها أعجبتني وجلست معهم لأستمتع وهم يغنون، وأصفق معهم على إيقاع الأغنية

"شيد قصورك على المزارع من كدنا وعمل إيدينا
والخمارات جنب المصانع والسجن مطرح الجنينة
واطلق كلابك في الشوارع واقفل زنازينك علينا
وقل نومنا في المضاجع آدي احنا نمنا ما اشتهينا
واتقل علينا بالمواجع احنا اتوجعنا واكتفينا
وعرفنا مين سبب جراحنا وعرفنا روحنا وإلتقينا
عمال وفلاحين وطلبة دقت ساعتنا وابتدينا
نسلك طريق مالهش راجع والنصر قرب من عينينا

نسلك طريق مالهش راجع والنصر قرب من عينينا
والنصر أقرب من إيدينا.. والنصر أقرب من إيدينا"

انتهت الأغنية وصفقت وصفق الجميع، ثم نهضت من بينهم لأسير في اتجاه آخر، كان عبد العزيز يتناقش مع أحدهم بالقرب مني على أطراف الميدان، ومحمد ذهب ليجلب لنا بعض الطعام، اتجهت نحوه، كان بالقرب من دبابة هو والذي يتناقش معه، حتى الآن لا يعلم المتظاهرون ماذا يبيت لهم مبارك، وهل من الممكن أن تأتي أوامر للجيش بقتلنا أم لا؟، حتى الآن كانت المشاعر بيننا طيبة، سأل عبد العزيز الجندي:

- هل من الممكن أن تقتلونا إذا جاءتكم الأوامر؟

ابتسم الجندي وقال:

- إن شاء الله لن تأتي.

قال الرجل الذي كان بصحبة عبد العزيز:

- إذا جاءتكم لا تقتلونا.. نحن إخوانكم.

ربت الجندي على ظهره قائلًا:

- لا تقلق.

بعدها جلب محمد لنا خبزًا وأطباقًا من الفلين بها فول وجبن تناولناهم، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة مساءً، فقال محمد:

- ألا نعود الآن؟

قلت: أريد، أن أبيت هنا؛ الجو أمان، لا شرطة ولا بلطجية.

قال عبد العزيز:

– طالما أن بيتنا لم يكن بعيدًا عن الميدان فلنذهب ونعود في الصباح، لا بد أن نكون جوار ود وأمك.

فرضخت لهما وعدنا للبيت.

*****

2فبراير، يوم الأربعاء .. اليوم التاسع للثورة.

بدا اليوم عاديًا كالأيام التي قبله، ولكن بعد خطاب مبارك العاطفي بالأمس 1 فبراير الذي كان يخيرنا فيه بينه وبين الفوضى، سمعنا أنه هناك تظاهرات في كل مكان تؤيد مبارك، وهذه التظاهرات ستأتي ميدان التحرير، مجيئهم للميدان كان معناه الاشتباك معهم، كنت أسمع الكثير من حولي يقولون فليأتوا نحن بالتأكيد أكثر، ولكني كنتُ خائفة من المواجهة ليس على نفسي ولكن على الأرواح التي ستزهق بفعل الغباء، كان الإنترنت والاتصالات بدأت تعود تدريجيًا حيث كانوا مقطوعين، حتى لا يتواصل المتظاهرين مع بعضهم البعض، فاتصلت أمي على عبد العزيز بلغته أنها رأت في الأخبار أن مجموعة من الخيول والجمال يؤيدون مبارك متجهين للتحرير، أمرته أن نعود ولكنه طمأنها أنه الميدان مستقر والجيش متواجد وأن لا تقلق.. ليتها قلقت وأمرتنا بالعودة رغمًا عنا كما منعتنا من النزول يوم 31 يناير و1 فبراير..

أتى البلطجية على ظهور الجمال والخيول واقتحموا الميدان، هجموا علينا ودهسوا بعض الثوار وأصابوا آخرين بعصيم، وسط وقوف الجيش الذي لم يحرك ساكنًا ووسط ذهولنا كمتظاهرين، وجدت الجميع من حولي يركض تفرقت عن محمد وعبد العزيز، بينما أركض وسط الزحام والضرب العشوائي ضربني أحدهم بالسوط على ظهري فتألمت بشدة وصرخت وأنا أقول:

- عبد العزيز.

وقفت عند أول شارع طلعت حرب، أبحث عن عبد العزيز أو محمد، أو حليم كل يومٍ أبحث عنه بين المتظاهرين ولم أجده، حتى بين الفوضى تذكرته.

حاولت الاتصال بعبد العزيز أو محمد ولكن الشبكة كانت سيئة، دقيقة ووجدت تراشق بالحجارة والمولوتوف بين المؤيدين البلطجية والثوار، هؤلاء البلطجية فيما بعد اتضح أنهم تابعين للحزب الوطني، ركضت بعيدًا حتى أصبحت في مأمن فوجدت المصابين والقتلى والمتظاهرين يحملوهم للمستشفى الميداني سرت معهم وانضممت للأطباء، نسيت أمر عبد العزيز ومحمد كان يومًا شاق، تعرفت على الأطباء والطبيبات وعرفت منهم أن المتظاهرين قسموا أنفسهم فرق لحماية الميدان، قال أحدهم:

- سيهدأ كل شيء .. تماسكوا.

لم تنتهِ الساعة ووجدت محمد محمولًا بين ثلاثة مغمضًا عينيه والدماء تغرق رقبته وكتفه وذراعه الأيمن كان يبدو مقتولًا، ألقيت جهاز الوريد من يدي وبرزت عيني ووضعت كفيّ على فمي حتى لا أصرخ، لم أستعب، اتجهت نحوه مسرعة أقيس نبضه وأتفقده كان قد أخذ رصاصة في رقبته، قلت بتوجس:

- محمد!

كان ما زال به نفس، قلت موجهة حديثي للأطباء وأنا أبكي:

- ما زال حي افعلوا أي شيء أرجوكم.

كنت متيقنة أنه سيموت، ظللت أقول باكية:

- لا تمت يا محمد أرجوك .. لأجل ود لا تمت، لأجل طفلك القادم لا تمت.

حاولت إحداهن أن تهدئني وأنا أكرر كلامي:

- أرجوك لا تمت .. ماذا ستفعل ود بدونك.

لم تجدِ أي محاولة معه نفعًا ومات، هويت جواره واجمة والدموع تسيل على وجنتيّ وأنا لا أعلم ماذا أفعل ومن أخبر، هل تتحمل ود مرة أخرى فراق عزيز؟

لا يبدو أنها ستتحمل حتى فراق خوخة، وما ذنب الطفل القادم أن يولد يتيمًا، لَمَا مت يا محمد لَمَا؟ ليت الثورة ما قامت لأجلك ولأجل ود، ظل الكثير يواسيني وأنا صامتة كصنم من أصنام الجاهلية أنظر إلى اللا شيء.. تمنيت أن أجد حليم لأقول له "هل نحن رخاص لهذه الدرجة بالنسبة

للنظام مقابل كرسي السلطة؟" هل البلد تغوص في الفساد لهذه الدرجة؟ ظللت صامتة جواره طويلًا وأنا ما زلت لا أعلم ماذا أفعل، لم أتخيل رد فعل ود عندما تعرف، فالتفت إلى محمد مسكت فكه أحركه وأنا أقول:

- لَمَا يا محمد لَمَا؟

قال أحدهم:

- لا بد أن تبلغي أهلك.

لم أرد ظل لساني معقود بفعل الصدمة، فقالت إحداهن:

- اعطني الهاتف وقولي لي اسم الذي سوف أتصل عليه أبلغه.

أعطيته لها ويدي ترتجف وأنا أقول واهنة:

- عبد العزيز .. اتصلي بعبد العزيز.

*****

ظلت ود، مذهولة عن نفسها أيام، لا تأكل ولا تتكلم، فقط تتحسس بطنها وتبكي صامتة، تنهمر العبرات على وجنتيها دون نشيج وشهقات، كيف أواسيها؟ وبماذا أعزيها؟، لا شيء يمكنه عزائها عن محمد، فلا مصيبة أعظم من فراق لا يعقبه لقاء في الدنيا، كل كلمات المواساة والعزاء ستظل بلا قيمة، حتى ولو رحل مبارك نفسه وأصبحت مصر جنة.. هل سيعود محمد؟

كانت تظل بهذه الحالة حتى ساعات متأخرة من الليل، فكنت أضم رأسها لصدري وأمسح على شعرها حتى تنام.

قام حسام شقيق محمد بتكبيرصورة لمحمد وهو مبتسم، ابتسامة عذبة جميلة، كل الشهداء الذين رأيت صورهم كانت ابتسامتهم جميلة وملامحهم طيبة، عندما تراهم تقول في نفسك كيف ولِمَ يقتلون هذه الوجوه البريئة؟ أعطى حسام الصورة لود، قد كان مدونًا عليها:

"الشهيد محمد سامي النادي، شهيد موقعة الجمل 2 فبراير 2011.. عريس الجنة"

كلما نظرت ود للصورة يزداد بكاها، التاريخ الذي استشهد به محمد كان ذات التاريخ الذي استشهدت فيه جدتي!! الثاني من فبراير يوم غرق عبارة السلام، أبى نظام مبارك ألا يتركنا حتى وهو ينازع دون أن يترك علامة أخرى غائرة فينا، لنتذكره مرتين كل عام في الوقت نفسه. كانت تأتي أغنية رامي جمال وعزيز الشافعي "يا بلادي يا بلادي" بين فواصل الأخبار، فتثير بكانا جميعًا ونبكي مع ود.

أكثر ما كان يثير بكائي كان مقطع "بودع الدنيا وشايفك يا مصر حلوة ولابسة جديد"

كنت أفكر ترى ماذا كانوا يرون حين موتهم؟ أكانوا يرون مبارك راحلًا والثوار سعداء ومصر في ثوبٍ جديد حقًا؟!

هل نحن كشعب نستحق أن يموت آخرون لأجلنا؟ هل سنواصل المسير لنحقق ما كانوا يريدون؟!

أخشى أن تمر الأعوام ويأتينا مبارك آخر باسم آخر، إن حدث هذا سوف يكون أشد ظلمًا وجورًا، فلن يسمح لنا أن نعيد يناير مرة أخرى.

*****

11 فبراير، يوم الجمعة.. اليوم الثامن عشر للثورة.

"يوم تنحي مبارك"

أعلنت القنوات الإخبارية عن بيان هام للشعب، ظللنا في البيت ننتظره ونحن نأمل أن يكون إعلان رحيل مبارك، عقب أذان المغرب أذاع عمر سليمان البيان الذي يحفظه كل مصريٍ مؤيد للثورة:

"أيها المواطنون، في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد، قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة لإدارة شئون البلاد والله الموفق والمستعان"

كبّر عبد العزيز وابتسمت أنا غير مصدقة، كنا جميعًا أمام التلفاز، نظرت لود قائلة:

- لقد رحل مبارك يا ود .. رحل.

انسابت دموعها قائلة:

- ولكن هذا لن يعيد محمد.

تحولت سعادتنا العارمة لبؤس صارخ، في ظرفٍ غير ما نحن فيه، كنا سنكون في قمة السعادة،

لربما كان محمد سيعانق ود، وتزغرد أمي لسرورنا، ويسجد عبد العزيز الذي كان يتمنى رحيله منذ أعوام، وأشاهدهم أنا بسعادة تامة، ولكن سعادتنا بهذا الخبر أصابها صَدْع سبّبه استشهاد محمد، أخذتُ بيد ود وأنا

أقول:

- هيا يا ود .. هيا يا عبد العزيز .. سنذهب للميدان.

قال عبد العزيز:

- اذهبا أنتما واستمتعا .. سنبقي أنا وأمك نحرس البيت.

ارتدينا ملابس الحداد السوداء وذهبنا، أخذت أنا علم مصر وأخذت ود صورة محمد، كانت الشوارع كلها تعج بالاحتفالات، والسماء تملأها أضواء الألعاب النارية، وصلنا الميدان بعد عناء، الجميع سعيد، رأيت من يتحدث في الهاتف ومن يسجد ومن يعانقون بعضهم

كانت أغنية عبد الحليم "صورة صورة" تتصدر المشهد والجميع يلوح بعلم مصر وأعلام البلاد العربية

"صورة صورة صورة كلنا كدا عايزين صورة

صورة صورة صورة تحت الراية المنصورة

صورة للشعب الفرحان تحت الراية المنصورة

يا زمان صورنا.. صورنا يا زمان

هنقرب من بعض كمان.. هنقرب من بعض كمان واللي هيبعد من الميدان

واللي هيبعد من الميدان

عمره ما هيبان فى الصورة

خضرة وماية وشمس عفية وقبة سما زرقا مصفية

ونسايم سلم وحرية ومعالم فن ومدنية

ومداين صاحية الفجرية على أشرف ندهة وأذان

دي بلدنا

دي بلدنا مصر العربية صورة.. صورة

صورة منورها الإيمان."

انتهت الأغنية وحل محلها النشيد الوطني الذي صرنا نردد خلفه، ثم هتف أحدهم

"الشعب خلاص أسقط النظام" ونحن نهتف وراءه بسعادة ثم هتف "ارفع راسك فوق أنت مصري" ونحن نردد ظلت الهتافات والأغاني تتنوّع،

أخرجت هاتفي أصور هذه الأجواء وود جواري ممسكة بصورة محمد، لا تبكي ولا تهتف ولا تفعل شيئًا، فقط واجمة كان يمر جوارنا من يصورها، يعرفون أنها ربما شقيقة أو خطيبة أو زوجة شهيد.

تذكرت حليم، أنهيت التصوير وكتبت رقمه وضغط اتصال وأنا أدعي أن يرد، هذه الاحتفالات

لا بد أن يشهدها، هو أولى مني ومن الكثير، فقد سعى كثيرًا لأجل هذه اللحظة، فتح المكالمة، كان جواره ضجيج وأصوات كثيرة، أتاني صوته وهو يقول:

- صبا.

ازدادت ضربات قلبي، فواصل:

- رحل مبارك يا صبا.

ابتلعت ريقي وقلت:

- أين أنت؟

- في ميدان التحرير.

- وأنا أيضًا.

- أين موضعك تحديدًا؟

نظرت حولي وقلت:

- أمام "كنتاكي"

- سأتيك الآن.

انتظرت حتى جاء يحمل علم مصر، كان يدور بعينه يبحث عني، أشرت له وأنا أقول:

- حليم ها أنا هنا.

جاء سعيدًا وهو يقول بصوت مرتفع حتى أستطيع سماعه:

- رحل مبارك يا صبا .. أنا غير مصدق حتى إنني أخاف أن يكون كل ذلك حُلمًا.

دار في الهواء وهو يضحك وعلم مصر يرفرف في يده وهو يقول بأعلى صوته:

- انتهت دولة الظلم والفساد وسيبدأ عصرًا جديدًا.. إنها معجزة بكل المقاييس.

ضحكت من السعادة، لقد كنت أدعو الله أن تحدث معجزة تمكن حليم من الخروج، وقد حدثت المعجزة .. تذكرت أن ود معي ومكسورة بالكامل لوفاة زوجها، فتقلصت ضحكتي وقلت:

- كيف حالك؟.

قال بحماس:

- أنه أجمل يوم في عمري .. فقد استرددت كرامتي، لو لم تقم الثورة ويرحل مبارك كنت لن أحب أن أراك مرة أخرى، لقد كسروني أمامك ولكني اليوم قوي وأستطيع محاكمتهم.

ابتسمت ثم أشرت له على ود الذي كان متجاهلًا وجودها دون قصد وقلت:

- هذه ود أختي التوأم، زوجة الشهيد محمد سامي النادي استشهد يوم موقعة الجمل.

قطب جبينه ومد يده لها متأثرًا يحييها وقال:

- أعلم أن لا شيء يمكنه مواساتك ولكننا قسمًا سنقتص له ولكل الشهداء، لا بد أن تفخري به.

أومأت له ود بابتسامة منكسرة.

فهذا النصر الذي كنا نشعر به كان بالنسبة لها هزيمة ساحقة طالما أن دماء محمد الذكية كانت قربانًا له.

*****

20 أكتوبر 2016

عيد ميلاد دلال الخامس، أجريناه في حديقة الأزهر، حضره معنا شقيقي محمد، حسام وليلى

وصورة محمد، فقد كانت ود تحرص على أن تكون صورته حاضرة معنا في كل مناسبة،

قدمنا جميعًا الهدايا لدلال، عدا ود .. فقالت دلال بضيق:

- جلبتوا لي جميعًا هدايا عدا أمي.

كنت أحملها، فضحكتُ قائلة:

- أي أم هذه؟.

قالت دلال وهي تنظر لي:

- سأتخذك أنتِ أو ليلى أمًا بدلًا منها.

قالت أمي:

- وأنا.

- أنتِ جدتي.

ضحكت ود وأخذتها مني وهي تقول:

- لقد أحضرتُ لكِ أجمل هدية ولكنها بالبيت.

- ماذا أحضرتِ؟

- قطة جميلة.

ماتت خوخة منذ عام وحزنت ود كثيرًا، ولكنها تعودت على الفراق فصارت تتقبل كل شيء بصدرٍ رحبٍ حتى الآلام، قبلتها دلال قائلة:

- إذًا ستظلين أنتِ أمي.

مرت السنوات تحمل خيبات ثقيلة وهزائم متتالية، كل شيءٍ تغير وتبدل؛ الشعب الذي خلع رئيس وكان الوطن بيده بالأمس، أضحى بائسًا وحلمه الجماعي بتحسين أوضاع البلاد تبخر، عادت كل أحلام الشباب شقة .. ووظيفة .. وزوجة، وكأن ثورة لم تقم.

لا شيء يدل على الثورة، سوى الكتابة على الجدران، ودموع الأمهات اللواتي فقدن أولادهن.

*****

أصبح عبد العزيز أبًا لثلاث فتيات، وعاد بيتنا مكتمل العدد، تنام ود جواري ونتحدث في الظلام ونجلس في الشرفة كذي قبل، ولكن لم تكن أحاديثنا كالماضي عمن نحب وعن أحلامنا، ذات يوم استيقظت بعد منتصف الليل على بكاء ود، استغربت!، دلال مستغرقة في النوم وود هي من تبكي! بالعادة يكون العكس، فقلت بفزعٍ:

- ماذا هناك؟ ما يبكيكِ؟ دلال بخير؟

- أشعر إنني سأموت الآن.

قلت بسرعة:

- هل هناك شيء يؤلمك؟

- لا.

وضعت يدي على جبهتها أتفقد حرارتها، ثم على قلبها وجدت ضربات قلبها سريعة، قلت:

- ضربات قلبك سريعة جدًا، اهدئي.

ازداد بكاها وهي تقول:

- بالله عليكِ يا صبا، إذا مت ارعي دلال ولا تهمليها.

ضممت رأسها لقلبي وظللت أقرأ لها القرآن حتى هدأت ونامت، تكررت تلك الحالة، توقظني أحيانًا لتخبرني إنها سوف تموت لكي أسعفها كوني طبيبة، وأحيانًا أستيقظ أنا أجدها تبكي وتقول لي:

- أخشى أن أموت وأترك دلال.

- يا حبيبتي، لن تموتي.. من يصور لكِ هذا؟

- لا أعرف.

- حدث ذلك كثيرًا، ولم تمتِ .. اطمئني.

لم ترد، ترتجف من الخوف فأواصل:

- نامي الآن وكل شيءٍ سيكون بخير في الصباح.

- كلما نمت أراني مكفنة ويضعوني في القبر وأنتِ وأمي ودلال تبكين، وأتخيل مصير دلال وهي بلا أم وأب فيؤلمني قلبي.

- لا تنامي الآن هيا نخرج للشرفة، سأعد كوبين من الشاي وأحضر.

عدت للشرفة أحمل صينية فوقها كوبان من الشاي، استقبلتني ود وهي تقول بنصف ابتسامة:

- كنا في الماضي نسهر للصباح نراقب طلوع النهار، وتحوّل ألوان السماء ونشعر بإنجاز عظيم جراء ذلك.. أصبحنا ننتظر الصباح ليس لنراقب طلوع النهار، وإنما لنشعر بالاطمئنان ويخف القلق ويزول الخوف والاكتئاب، ماذا أحدثت فينا الأيام؟ وماذا فعل بنا الكبر؟

شعرت بحنين للطفولة ولكني قلت:

- أحدثت فينا الأيام كثيرًا

- أصبحت أخاف من الليل، وطوال النهار أشعر بالخوف من قدوم الليل، لم أعد أشعر بالاطمئنان والسكينة.

- ولكننا كلنا معك لما هذا الخوف غير المبرر يا ود؟

- لم تكونوا معي يا صبا، أنتِ تذهبين للمستشفى، وأمك تنشغل في أعمال البيت، وعبد العزيز في عمله.. لم يبق لي غير دلال وهي سبب خوفي الأول، أنا لا ألومكم ولكني وحيدة جدًا.

تعثر صوتها وهي تواصل:

- واشتقت لمحمد كثيرًا، ولجدتك وللسكينة التي كنت أشعر بها في حضرتها.

- لا بد أن تتجاوزي كل ذلك يا ود، ثم إن دلال المفروض أن تكون سبب تفاؤلك، لا سبب خوفك.

- أخشى أن أموت وأتركها، أشعر كل يوم أنني سأموت، كل يوم.
- أنتِ تحتاجين إلى أن تشغلي وقتك بشيء ما؛ بحيث لا يكون عندك وقت تفكرين بتلك الأفكار السوداء، أنصحك إما بالعمل وإما أن تكملي دراستك.
- معك حق.. ربما أكمل دراستي.

ظللنا نتحدث حتى الصباح، سهرت لأجل ود وانتظرت حتى شعرت بالنعاس ولم تقوَ على مقاومته، فنامت فور وضع رأسها فوق الوسادة، شغلني أمر ود فبحثت وقرأت عن تلك الحالة التي تتكرر كثيرًا معها، عرفت أنها نوبات هلع، مرض نفسي يحدث لكثير من الناس، كنت ما زلت طبيبة امتياز فقررت أن أتخصص في الطب النفسي في مرحلة التخصص.

*****

أما حليم، فقد أصابه الاكتئاب، تفاؤله الكبير بالثورة ووضع أمله عليها، جعله يفقد الثقة في كل شيء عندما شعر بضياعها،
لم يجد أرضًا صلبة يقف عليها، كل شيء انهار مع الثورة بداية من القيم والمبادئ التي تربى عليها إلى الثوابت والرموز مرورًا بعلاقته بي، اكتشف إن كل شيءٍ زائف كالثورة تمامًا، مشكلة حليم أنه تفاءل أكثر من اللازم، وهذا براءة خطيرة كما يقول الفيلسوف سينكا في وصفه للتفاؤل، ذات يوم كنا نتحدث على الفيس بوك فأرسل لي:

- أخبرتك كثيرًا إنني أود الهجرة .. من اليوم سأسير في الإجراءات.

فتحت الرسالة مططت شفتيّ أفكر فيما سأكتبه، وكتبت:

- هاجر يا حليم ، اترك دولتك وعش في دولة أخرى ستكون فيها مواطن درجة ثانية.

- سأفعل.

- لا تكن مستفزًا!

- لم أكن مستفزًا، نحن هنا أيضًا مواطنون درجة ثانية، هذه البلد لم تكن لنا إنها لثلاث قطاعات الجيش والشرطة والقضاء.. أنجح شيء نفعله هو أن نهرب منها، الشرق الأوسط بأكمله لعنة.

- ولكنك هنا على الأقل تعيش وسط أناس يتحدثون بلغتك، وعاداتهم وتقاليدهم هي ذات عاداتك، هنا أرض مشتركة نقف جميعًا عليها.

- أنا ناقم على تلك العادات وتلك اللغة وهؤلاء الناس.

- مبهور بالغرب؟

- لا، ليس كذلك، أنا فقط أريد الهروب من هنا.

- ولكن هذه بلدك، التي تحبها واعتقلت وذقت الهوان لأجلها.

- كل حبي لها تحول لكرهٍ وأصبحت ناقمًا على كل شيء، أحلامنا هنا حقوق مكتسبة عند شعوب أخرى، كل شيء هنا ممل وغير آدمي.. لم أكن أريد أن يكون حُلمي شقة ووظيفة وزوجة كل هذا أصلًا مع كرامة مسلوبة وإرادة منعدمة منتهى العبث.

- وما ذنبي في كل هذا؟ أنت تعلم إنني أحبك.

- وما ذنب أصدقائي الذين ماتوا لأجل هتاف؟ وما ذنب محمد زوج أختك الذي مات ولم ير ابنته؟ وما ذنب ابنته أن تحرم منه فقط لأنه نزل يعبر عن رأيه؟ جميعنا ضحايا.

هنا لم أقوَ على مقاومة الغصة التي في حلقي وبكيت الثورة، وبكيت حماس حليم الذي انطفأ وتحول لإحباط وهزيمة مدوية، مسحت دموعي بأطراف أصابعي، وكتبت بيد مرتعشة:

- على راحتك يا حليم.

- لا أريدك أن تغضبي مني.

- لست غاضبة منك، أنا حزينة على ما آل إليه مصيرنا.

كتبت ذلك وأغلقت "اللاب توب" ودخلت حجرتي لأترك العنان لدموعي.

*****

17 أبريل 2020

مرت الأيام، وتعاقبت الشهور والسنوات هاجر حليم، واستأنفت ود دراستها، دخلت كلية التجارة، أفادتها الدراسة كثيرًا حيث حاصرت أفكارها السوداء، وبقيتُ أنا كما أنا، أراقب الأيام وهي تمضي والحياة وهي تتسرب.

لم تتغير مصر فقط بل تغير العالم أجمع، إذ حل وباء عالمي "covid19" أو كورونا كما يسموه العامة، انطلق من مدينة ووهان في الصين وغزا كثيرًا من البلاد، تعلقت رحلات الطيران وأغلقت المطارات، وأغلقت المساجد والكنائس، وألغيت الدراسة وسرى الرعب في نفوس الناس ولزموا بيوتهم، وأصبحت كثير من الأعمال تمارس من البيوت عبر الإنترنت، قبض كورونا كثيرًا من الأرواح وما زال ولكن الكثيرين أيضًا نجو منه.

أعراضه كانت كالأنفلونزا الموسمية؛ لذا كان من يسعل أو يعطس يتجنبه الناس ويخشون منه، ومن يموت به لا يصلي عليه أحد صلاة جنازة، ولا يحضر عزاءه أحد، ولا يمسه أقرباؤه ليطبعوا قبلة الوداع على جبينه. وهذا أسوأ ما في الوباء ولكن أحسن ما فيه أنه يأخذ فترة ويزول، كما زال الطاعون، والكوليرا، وسارس، وميرس، وكثيرًا من الأوبئة.

لم نكن نتخيل أن ذلك كله سيحدث عندما سمعنا في بداية العام عن المرض الذي ظهر في الصين، كنا نظنه بعيدًا عنا، ولكنه أصبح كأثر الفراشة وتحول لإعصار اجتاح العالم، إذ كانت خطورته تكمن في سرعة انتشاره. ظل الوضع يتطور، ونحن نراقب الأخبار، في شهر فبراير سمعنا أنه أصبح في مصر، حيث أعلنوا عن إصابة اثني عشر أجنبيًا كانوا على ظهر باخرة في النيل، وفي مارس أصيب به العشرات ثم تصاعدت الأعداد ففرضت الدولة حظر التجوال وفرضت ارتداء الكمامة، أما عن بيتنا فأصبحت دلال تقضي معظم الوقت مع أمي، أظن أن دلال ستعيد كرة أمها، تربيها جدتها وتتعلق بها كما تربت ود على يد جدتي، لم تشعر دلال باليتم أبدًا فقد كان عبد العزيز كأبيها حقًا، إذ كان يقص لها حكايا ويجلب لها كل ماتحبه وهو قادم من العمل، ويغني لها أغنية "أبو زعيزع" التي تحبها وهي ترقص وتصفق، وعندما يطرق الباب بطرقته المميزة كانت تطير فرحًا، وتركض لتختبئ له خلف الباب، كان عبد العزيز رحمة من الله مرسلة إلينا جميعًا. كما كانت دلال لطف من الله مرسلًا إلينا، إذ أطربت أيامنا فرحًا وبهجة بحصافتها وخفة ظلها، فلا يأخذ الله منا دون أن يعطينا. شاركتنا دلال في السرير أنا وود، فكانت تجبر ود أن تظل تقص لها حكايا حتى تروح في النوم، في هذا اليوم كنت أرتب أغراضي في حقيبتي حيث سأنضم لمستشفى "15 مايو" للعزل الصحي لمرضى كورونا، بصفتي طبيبة نفسية لدعم المرضى، رتبت أغراضي واستلقيت جوارهما وسحبت الغطاء فوقي، كانت ود في نهاية القصة تقول:

- عندما انطفأ آخر عود ثقاب، اقتربت جدتها منها وعانقتها وأخذتها معها إلى السماء ولم تعد بائعة الكبريت تشعر بجوعٍ أو برد.

ابتسمتُ قائلة: تحكي لها قصة بائعة الكبريت! كم كنت أحب تلك الأغنية وتؤثر فيَّ.. أتذكرينها؟

انطلقنا نغني معًا بدون ترتيب منا المقطع الأخير الذي نحبه من الأغنية:

"الشمس انطفأت واختبأت والناس إلى البيت التجأت

والثلج هطول في الشارع لا أحد فيه ولا بائع

صمت صمت لكن صوت جاء ينادي

كبريت.. كبريت.

الثلج يحيط بطفلتنا والبيت بعيد عن يدنا

والصوت ينادي والعود ينادي

من يسمعها .. من يسمعها

وهي تنادي من يسمعها

كبريت.. كبريت.

من برد أشعلت الطفلة عودًا يدفئها بالشعلة

انطفأ العود وصار رماد لكن البرد سريعًا عاد

لا أقسى من ريح تعصف .. لا أصعب من ثلج يندف

كانت طفلة والعود طري والعلبة لم يبق بها شيء

هدأ الصوت وساد الصمت وغفت بائعة الكبريت.

انتهت

الخميس 25 يونيو 2020

أنهي تلك المذكرات الآن، وأنا أرتدي تلالًا من الواقيات الشخصية، وأتعطر بالكحول والمطهرات

في الطابق الثالث من مستشفى "15 مايو" للعزل الصحي لمرضى كوفيد19

الساعة تمامًا 3:36 مساءً، أسمع صوت نهاية أذان العصر من المسجد القريب من المستشفى والمؤذن يقول "ألا صلوا في بيوتكم .. ألا صلوا في رحالكم"

صِبا سيد

تمّت بحمد الله